تائه

في تاهيتي

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

ⓒ محمد بن ناصر العبودي ، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد بن ناصر

تائه في هاييتي .ـ الرياض .

... ص ، .. سم

ردمك : ٩-٨٤٢-٣٥-٩٩٦٠

١- جزر هايتي - وصف ورحلات ٢- أدب ورحلات أ- العنوان

ديوي ٩١٧،٢٩٤ ٢٠/٠٥٥١

رقم الإيداع : ٢٠/٠٥٥١

ردمـك : ٩-٨٤٢-٣٥-٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

(١) - في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - بيروت دار الثقافة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٢) - رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا -الرياض دار العلوم ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣) - مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين - الرياض النادي الأدبي١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٤) - جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(٥) - رحلة إلى سيلان - الرياض - جمعية الثقافة والفنون ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م

(٦) - صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - الرياض - دار العلوم ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٧) - مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين - بريدة - نادي القصيم الأدبي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٨) - إطلالة على نهاية العالم الجنوبي - مكة المكرمة - نادي مكة الثقافي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٩) - زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية - الرياض - المؤلف ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١٠) - شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين - الرياض المؤلف ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١١) - في نيبال بلاد الجبال، رحلة وحديث في شؤون المسلمين - الرياض - مطابع الفرزدق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٢) - رحلات في أمريكا الوسطى - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٣) - إلى أقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي - الرياض المؤلف ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(١٤) - على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل - نشره النادي الأدبي في أبها ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٥) - على قمم جبال الأنديز - الرياض مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٦) - في غرب البرازيل - الرياض - مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٧) - في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر - طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٨) - بقية الحديث عن إفريقية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٢هـ.

(١٩) - جولة في جزائر البحر الكاريبي - مطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢٠) - جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٢١) - داخل أسوار الصين (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية - الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٢) - بلاد الداغستان - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٣) - الرحلة الروسية - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ.

(٢٤) - مع المسلمين البولنديين - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٥) - جمهورية أذربيجان - طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٦) - في أعماق الصين الشعبية - نشرته مجلة المنهل.

(٢٧) - بين الأرغواي والبارغواي - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٨) - بورما الخبر والعيان - طبع بيروت عام ١٤١٢هـ.

(٢٩) - مقال عن بلاد البنغال - طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٠) - ذكريات من يوغسلافيا - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣١) - كنت في بلغاريا - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٢) - في جنوب الصين - طبع رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

(٣٣) - كنت في ألبانيا - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٣٤) - ذكرياتي في إفريقية - محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

(٣٥) - أيام في النيجر - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٦) - على أرض القهوة البرازيلية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٥هـ.

(٣٧) - نظرة في شرق أوربا وحالة المسلمين بعد الشيوعية - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٨) - بين غينيا بيساو وغينيا كوناكرى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٣٩) - من أنقولا إلى الرأس الأخضر - مطابع الفرزدق بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٤٠) - سياحة في كشمير - مطابع الفرزدق عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤١) - يوميات آسيا الوسطى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٤٢) - نظرة في وسط إفريقية - مطابع الفرزدق عام ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(٤٣) - بلاد القرم - نشرته دار القبلة في جدة.

(٤٤) - قصة سفر في نيجيريا (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

(٤٥) - حديث قازاقستان - نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

(٤٦) - المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية - نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها عام ١٤١٦هـ.

(٤٧) - في جنوب الهند من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٤٨) - رحلات في أمريكا الجنوبية: غيانا وسورينام، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٤٩) - إطلالة على أستراليا - طبع في مطابع التقنية للأوفست - الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٥٠) - أيام في فيتنام - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥١) - في غرب الهند - من سلسلة الرحلات الهندية - نشرته رابطة العالم الإسلامي عام ١٤١٧هـ.

(٥٢) - إطلالة على موريتانيا - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥٣) - حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٤) - زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٥) - سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

(٥٦) - راجستان: بلاد الملوك من سلسلة الرحلات الهندية - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٧) - في شرق الهند، من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٥٨) -العودة إلى الصين، من سلسلة الرحلات الصينية - طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

(٥٩) - في شرق البرازيل، من سلسة الرحلات البرازيلية - طبع في مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦٠) - هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز)، مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦١) - من بلاد القرشاي إلى بلاد القبرداي، من سلسلة الرحلات القوقازية - طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض، عام ١٤٢٠هـ.

(٦٢) - بلاد التتار والبلغار، من سلسلة رحلات الشمال - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٦٣) - بلاد الشركس: الإديغي - طبع مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٦٤) - مواطن إسلامية ضائعة - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

(٦٥) - تائه في تاهيتي - طبعته مطابع التقنية بالرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

(٦٦) - معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات) - نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأوفست بالرياض عام ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

(٦٧) - أخبار أبي العيناء اليمامي - طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

(٦٨) - الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبد العزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

(٦٩) - كتاب الثقلاء - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٧٠) - نفحات من السكينة القرآنية - طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس - نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٣هـ.

(٧١) - مأثورات شعبية - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٧٢) - سوانح أدبية - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٧٣) - صور ثقيلة - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٧٤) - العالم الإسلامي والرابطة - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها عام ١٤١٤هـ.

(٧٥) - نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء - مطابع التقنية في بالرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٧٦) - المقامات الصحراوية - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٧٧) - مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين، وبخاصة الأقليات المسلمة - بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية - نشرته لجنة الاحتفال بمرور مائة عام على التأسيس، وطبعته في مطابع الناشر العربي في الرياض ١٤١٩هـ.

(٧٨) - كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، أحد بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، ونشرته جامعة أم القرى في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ.

(٧٩) - المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة) - ونشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطابعها في مكة المكرمة.

(٨٠) - مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبد العزيز، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية).

(٨١) - رابطة العالم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها بمكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

مُقَدِّمَة

الحمد الله رب العالمين الذي أعطاني من نعمه ما لا أستطيع له شكراً، وأنالني من الوصول إلى الأماني التي لا أستطيع لها حصراً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وهداية لخلقه أجمعين.

أما بعد، فإن زيارة (تاهيتي) كانت أمنية قديمة حاولت تحقيقها قبل ثلاث سنوات عندما زرت بعض الجزر في جنوب المحيط الهادئ، فلم يتسع الوقت لزيارتها.

ثم قبل عام ونيف عندما عزمت على السفر إلى البرازيل في مهمة رسمية تتعلق بتفقد أحوال المسلمين، والعمل على النهوض بمؤسساتهم، وكان معي صديقي الشيخ محمد بن قعود؛ المدير العام للدعوة في رئاسة الإفتاء في الرياض جعلنا الرجوع من أمريكا الجنوبية إلى بلادنا من جهة الشرق، وقطعنا تذاكرنا إلى هذه المنطقة، ومنها (تاهيتي)، وكان قصدي من ذلك زيارة الجزر التي لم أزرها من قبل في جنوب المحيط الهادئ، وبخاصة مملكة تونغا و(تاهيتي) هذه؛ غير أننا عندما فرغنا من زيارة البرازيل وبعض أقطار أمريكا الجنوبية كانت المدة التي قدرناها كافية للسفر قد نفدت في أمريكا الجنوبية وحدها، فغيرنا تذاكر السفر، وعدنا عن طريق الغرب.

وفي هذا العام سنحت الفرصة ثانية لزيارة (تاهيتي)، وذلك حينما دعاني الإخوة من أعضاء الجمعية الإسلامية في مدينة (كرايتس تشيرتش) في الجزيرة الجنوبية من نيوزلندا، وهي دعوة كريمة لافتتاح مسجد في منطقة هي أكثر المناطق بعداً إلى جهة الجنوب، ويقول أولئك الإخوة: إن مسجدنا أقرب مسجد ينادى فيه بالأذان: الله أكبر، الله أكبر إلى القطب الجنوبي من أي مسجد آخر على وجه الأرض.

كما جد في أمر المنطقة جديد مفرح، وهو أن رجلاً من وجهاء مملكة تونغا؛ بل من نبلائها، وكان ذا رتبة في الكهنوت كبيرة؛ بل كان داعية للمسيحية، هداه

الله إلى الإسلام، ودعا قومه إلى الدخول فيه، فكان أول رجل من أهل البلاد يسلم، وكان ذلك قبل سنتين بقليل، وعلى وجه التحديد في شهر ديسمبر عام ١٩٨٣م.

وقد بلغ عدد المسلمين من قومه حتى الآن ما يقارب المائة، غير أنهم يحتاجون إلى رعاية وتعليم، وإلى مساعدة على دفع أجرة البيت الذي استأجروه واتخذوه مسجداً، ومكاناً للاجتماع.

كما أن من الواجب، بل من أوجب الواجبات زيارتهم والاتصال بهم، وتشجيعهم على المضي في الدعوة إلى الله، بل التوسع في ذلك، وتبيين ما ينبغي أن نساعدهم به.

وهذا هو أقل ما يمكن عمله تجاه إخوة مسلمين أُدخلوا الإسلام في منطقتهم لأول مرة.

فصح عزمي على السفر في المهمتين كلتيهما، وأن أضيف بعد الانتهاء منهما زيارة بعض الجزر التي لم أزرها من قبل في تلك المنطقة، وهي ساموا الغربية، وساموا الأمريكية، وجزر كوك، وتاهيتي.

وكنت زرت قبل ثلاث سنوات أكثر الدول في جزر المحيط الهادئ الجنوبي، وهي فيجي، و(نيوكلدونيا)، وجزر هبريدز المسماة حالياً (واناواتو)، وجزر سليمان، وكتبت في ذلك كتاباً أسميته؛ ((جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ))، وهو كتاب مطبوع.

قلت: إن زيارة (تاهييتي) كانت أمنية قديمة لي، وذلك لبعدها الشديد عن بلادنا، ونقص المعلومات الميدانية الحية عنها في كتبنا، ولكوني لم أزرها، وقد زرت بلدان العالم بأجمعها على وجه التقريب.

وشيء مهم آخر، وهو المغالاة في الأخبار عن غرائب عادات أهل تلك الجزر

(تاهيتي) وملابسهم، وما يضيفه الخيال عادة على الأمور المستغربة من أشياء مشوقة لا تتضمنها الحقيقة المجردة.

وعندما أكملت زيارة (تاهيتي)، ورجعت إلى ما كتبته عنها، وجدتني أشعر أن أكثر ما ذكره الذاكرون عنها كان من نسج الخيال، أو كان بعضه جزءاً صغيراً من حقيقة نالها الزوال، وتغيرت بها الأحوال.

وجدت أنها من أقل المناطق التي زرتها أحقية بجذب السياح.

فهي غالية الأسعار إلى حدود المبالغة، وهي ممسوخة بمعنى أن عاصمتها أصبحت مدينة أوروبية في أقصى الجنوب الشرقي من المحيط الهادئ، ففسدت طبيعتها، وحلت السيارات الكثيرة في شوارعها محل الحيوانات الطليقة في جزرها.

بل إن المرء لتغلب على أذنه فيها أصوات المحركات المزعجة بدلاً من أن يسمع أصوات الطيور المغردة.

على أننا إذا استثنينا المسخ الحضاري في عاصمتها، فإنه لا تزال توجد فيها جزر هي من الغابات الملتفة، بل الجنان الأرضية، ولكنها ليست فريدة دون أقطار العالم بذلك، وفيه ما هو أقرب إلى بلادنا، وبلاد العالم المتحضر، وأبعد عن إفساد المدينة منها.

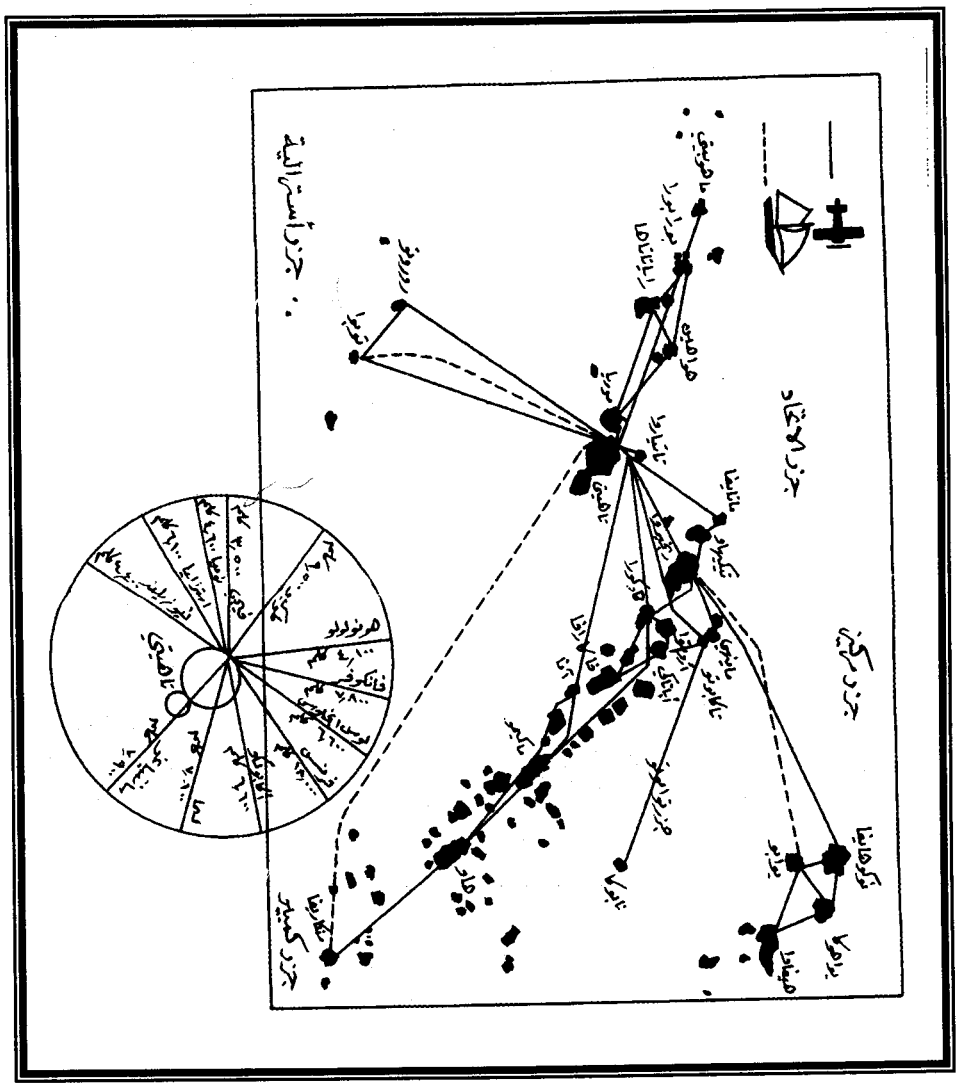
وقد أسميت هذا الكتيب: ((تائه في تاهيتي))

وربما كان لبعض ما انطبع في نفسي عن (بابيتي) عاصمة تاهيتي بسبب عدم وجود المسلمين، أو حتى الأصدقاء الآخرين ما حملني على أن أجعل عنوانه هكذا.

وأظن أن القارئ الكريم إذا قدر له أن يسترسل في قراءة الكتاب، فإنه سيعرف من ذلك الكثير عن أحوال هذه الجزر النائية الغامضة. والله الموفق للصواب.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي



خارطة تاهيتي

تاهيتي

تسميتها:

وأصل تسمية (تاهيتي) لهذه الجزيرة الكبيرة التي عاصمتها بابيتي، وتبلغ مساحتها ١٠٤١ كيلومتراً مربعاً، ثم صارت اسماً شاملاً من الناحية الإدارية لمجموعة من الجزر القريبة منها، وإن كان لكل جزيرة منها اسم خاص بها، ولكن جزيرة (تاهيتي) أكبرها مساحة.

وكان يطلق عليها قبل تصفية الاستعمار (بولينيزيا الفرنسية)؛ إذ كانت بالفعل مستعمرة فرنسية، إلا أنها صوتت على البقاء داخل الاتحاد الفرنسي، فصارت أرضاً فرنسية خارج البحار، مثلها في ذلك مثل جزر عدة في أنحاء العالم، مثل جزيرة (رينيون) في البحر الزنجي شرق مدغشقر، وجزيرة المارتنيك في البحر الكاريبى، وغيانا الفرنسية في الشرق الشمالي من قارة أمريكا الجنوبية.

ومعنى اسم (تاهيتي): ابق جانباً، أي الزم جانب المكان، ولكن لا تمسه.

هكذا قال لي عدد من أهلها، وذلك من لغة لهم قديمة.

وتقع في أقصى جنوب المحيط الهادئ في موقع يقرب أن يكون منتصف المسافة بين مدينة لوس أنجلوس في غرب الولايات المتحدة الأمريكية، ومدينة (سيدني) في شرق القارة الأسترالية الجنوبي، ومع هذا البعد الشديد عن أوروبا، وعن بلادنا العربية، فإن السياح الأوروبيين يأتون إليها بأعداد كبيرة، إذ تنظم الشركات السياحية رحلات جماعية حول العالم يكون من أهم ما فيها زيارة تاهيتي، وتكون أسعارها مناسبة.

وأفضل الطرق وأقربها للوصول إليها في البلاد العربية هو عن طريق

أستراليا ، ونيوزلندا ، وسيأتي في اليوميات ذكر عودتي منها عن طريق مدينة (سيدني).

تاريخ تاهيتي

يعتقد أنه في القرن الخامس الميلادي عبرَ من المحيط الهادئ مجموعة من البحارة المغامرين من قبائل « ماورى » في قوارب ذات مساند ، واكتشفوا جزيرة تاهيتي في كامل روعتها ، وهم أصل سكانها الحاليين.



جزيرة تواموتو

إحدى جزر تاهيتي

لم يصل الأوروبيون إلى تاهيتي إلا في شهر يونيو من عام ١٧٦٧م؛ حيث وصل الكابتن صموئيل واليس الإنكليزي وملاحوه إلى هذه الجزيرة في ذلك التاريخ قبل الكابتن « بوقانفيل » بعام واحد ، وكان الإسباني « منيدانا» قد

اكتشف الجزر المسماة، « ماركيزاس » عام ١٥٩٥م، بينما اكتشف البرتغالي « كويروس » جزيرة « تواموتو » عام ١٦٠٦م، وقد حاول الإسبان استعمار تاهيتي عام ١٧٧٤م، ولكنهم فشلوا في ذلك.

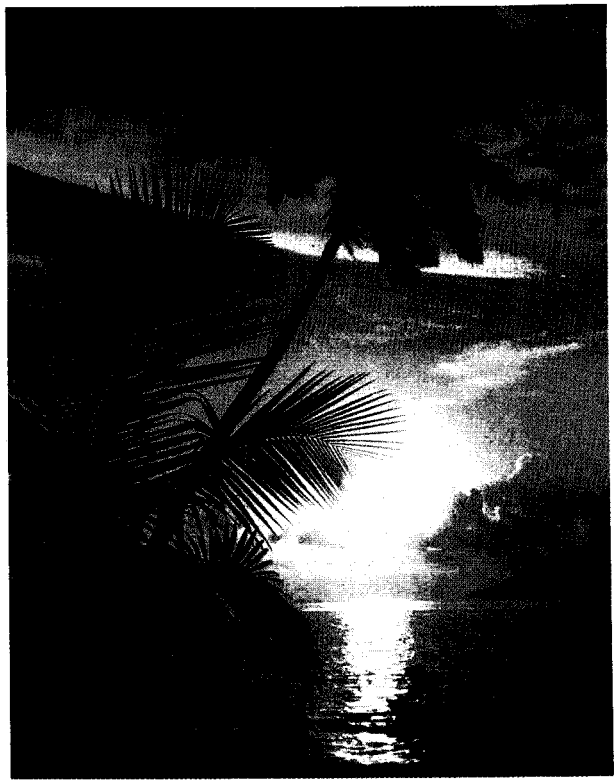
أما الكابتن « كوك » فقد وصل إلى جزيرة تاهيتي في ١٣ من شهر أبريل من عام ١٧٦٩م على متن السفينة المسماة « ذي إنديفور » حيث رسا في خليج ما تافاي، وقد تجول كوك في أرجاء الجزيرة بصحبة عالم النبات «جوزيف بانكس » حيث جمع من المعلومات ما يكفي لوضع خريطة دقيقة لساحل تاهيتي، وذلك بعد أسبوع واحد فقط من وصوله، وفي هذا كتب الفنان « فرانسيس بركينسون » يقول:

« بدت اليابسة غير متساوية وكأنها قطعة من الورق المكرمش إذ كانت مجزأة دون انتظام إلى تلال ووديان، وإن كانت تغطيها خضرة جميلة تصل حتى القمم العالمية، وكان « كوك » قد فهم أن الجزيرة تسمى «أوتاهايتي » أي بإضافة حرف أو (O) الذي يعني: «إنه هو »، أو اختصار «هو»، وما لبث التاهيتيون أن أضفوا ألقاباً تاهيتية على « كوك » وبعض ملاحيه، فلقبوا « كوك » بلقب « توت »، أو « توتي »، ولقبوا عالم النبات «بانكس » بلقب « أوباني »، وعالم الطبيعة السويدي « سولاندر » بلقب «طولانو» ، وقد غادر كوك جزيرة تاهيتي في ١٣ من شهر يوليو عام ١٧٦٩م.

أرض الحليب والعسل:

لم يكن التاهيتيون يعرفون الكتابة أو شغل المعادن أو أي عمل على الإطلاق على غرار ما يعرفه الأوروبيون، فكانت إمكانات الحياة البسيطة لهم متوفرة في جزرهم، ويكفي الشخص منهم في ذلك بضع ساعات من الجهد البدني كل يوم أو يومين، وكانوا يقضون بقية أوقاتهم في المرح والرقص في حالة تشبه فكرة الأوروبيين عن معيشة بدون تعب.

وكان مجتمعهم البولينيزي ينقسم إلى عدة طبقات؛ حيث كانت السلطة الروحية في أيدي رؤساء القبائل والكهان تحميها سلسلة من المحرمات في عرفهم تسمى بال « تابوا »، وكان هذا النظام يعمل بمثابة قانون مدني لا يحتاج إلى وجود قوى الشرطة في مجتمع لا حاجة به لوجود السجون، إلا أنه ورغم طبيعة الحياة التي يتمتع بها الإنسان البولينيزي قد كانت هناك حروب كما هو الحال في كل مجتمع بشري؛ غير أن تلك الحروب كانت قليلة وضيقة النطاق بمثابة صيد الحيوان، أو كمنظم سكاني ملائم للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في تلك الجزر.



غروب الشمس في تاهيتي

وبسبب أسلوب الحياة البولينيزي والجمال الطبيعي لشعوب المنطقة، والمناظر الخلابة أصبحت جزيرة تاهيتي وفي فترة زمنية قصيرة جداً أرض الحلم بالنسبة للأوروبيين، أتى إليها الناس من كل حدب وصوب، واستغل الجميع كرم أهل الجزيرة، وجوانب كثيرة من سلامة قلوبهم.

وبعد منازعات بين القوى الأوروبية تمكنت فرنسا من فرض حمايتها على المنطقة عام ١٨٤٢ إلا أن هذه الحماية لم تثبت إلا في عام ١٨٨٠م، ويتمتع جميع سكان بولينيزيا الفرنسية بالجنسية الفرنسية.

وهناك جالية من الصينيين جلبوا أساساً لتحسين الوضع الزراعي في المنطقة، إلا أنهم هجروا الزراعة، وأصبحوا أصحاب (دكاكين)، ويسيطرون اليوم على معظم الأعمال التجارية في المنطقة.

ويعيش في تاهيتي اليوم أكثر من ١٠٠٠٠ آسيوي إلى جانب نحو ٩٨٠٠٠ تاهيتي، و ١٥٠٠٠ من أصل أوروبي، ويحكم الجزيرة مندوب سام فرنسي يساعده مجلس مكون من خمسة أعضاء.

المعتقدات:

للبولينيزيين أساطير وخرافات متوارثة تعبر عن تخيلاتهم التي كان أوائلهم يعتقدونها، وبناء عليها كانت المعرفة الروحية التقليدية عندهم مركزة في أيدي الكهنة الذين يتمتعون بسلطات واسعة في المجتمع التاهيتي، فهم يؤمنون بخلود الروح، وبجنة سماوية يدخلونها بعد الممات يسمونها ((تي هافايكي))، أو استبدالهم خلقاً آخر يعيش على الأرض أو البحر أو السماء، ويقولون إنهم يعبدون إلهاً واحداً هو خالق الكون كله، ومصدر المعرفة والقوة كلها، يسمونه «تاروا»، تعينه - بزعمهم - آلهة ثانوية يولدهم هو أو غيره من الآلهة، وتجري الطقوس الدينية لدى التاهيتيين في غرف دائرية مبنية من الحجر المنحوت، أو مكونة من جدران مبنية من الرخام المرجاني على حسب

الجزيرة التي تقام فيها تلك الطقوس، ويقع الهيكل في طرف من الغرف حيث يتم تقديس التماثيل، وتقديم الأضاحي البشرية النادرة.

على أنه لم يبق شيء من هذا التنظيم الاجتماعي والديني اليوم إذ لا يمكن مشاهدة ما تبقى من عناصر هذا الاعتقاد القديم إلا في المتاحف، والمقتنيات الخاصة.

وقد وصل المنصرون إلى تاهيتي بعد وصول المستعمرين، ونشطوا حتى سيطرت الديانة المسيحية على أهل البلاد كلها، وحتى تحول الإحساس الديني العميق عند البولينيزيين من سكان تاهيتي بأساطيرهم الروحية القديمة إلى إحساس بالدين المسيحي.

ويعتنق أكثر أهل تاهيتي المذهب البروتستانتي، لأنهم دخلوا الدين المسيحي على أيدي المنصرين من (البروتستانت)، ولكن يوجد الكاثوليك في جزر أخرى مثل (تواموتو).



جزيرة بورا إحدى جزر تاهيتي

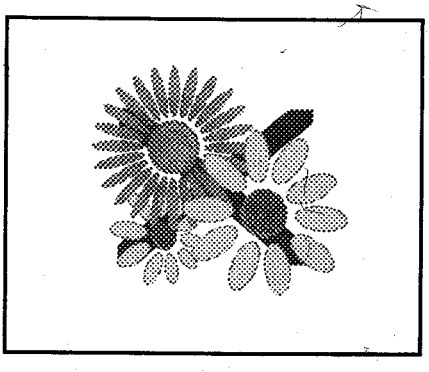
ولبيان اهتمام التاهيتيين بالدين المسيحي نذكر أن الكتاب الوحيد المكتوب بلغتهم التاهيتية هو الإنجيل، وقد ترجمه الملك (بوماري) أحد ملوك تاهيتي.

ويحترم التاهيتيون الوصايا العشر التي توردها التعاليم المسيحية إلا واحدة، وهي (لا تزنِ) التي تنهى عن الزنا.

إذ المعروف عنهم أنهم لا يبالون بذلك.

ولا شك أنهم وجدوا قدوة في هذا الأمر المشين من أئمتهم المستعمرين الفرنسيين الذين لم يمنعهم ادعاؤهم اعتناق المسيحية من الزنا، بل من عدم استنكاره في أكثر الحالات.

ويعلل بعض الباحثين ممارسة أهل تاهيتي للزنا بكونهم يجدون صعوبة من ناحية تقاليدهم القديمة أن يعتبروا اللذة مصدراً للخطيئة، ولذلك تكاد تعدم الغيرة عندهم، ولا يوجد تعبير عنها بلغتهم القديمة.



يوم الأحد ٣/٢٦ /١٤٠٦هـ الموافق ٨/ ١٢/١٩٨٥م.

وكتبت في مذكرتي أن هذا اليوم هو حسب تقويم النصف الشرقي من الأرض، وذلك أن هذه الجزر التي نحن فيها وسوف نغادرها واقعة خلف خط التاريخ الدولي الذي يتغير عنده التقويم، فيتأخر يوماً لمن يخترق هذا الخط متجهاً جهة الشرق، ويتقدم يوماً لمن يذهب عكسه إلى جهة الغرب.

فأنا كنت في مملكة تونغا الواقعة خلف خط التاريخ الدولي مباشرة جهة الغرب، وكنت قادماً إليها من نيوزلندا يوم السبت منذ تسعة أيام، فلم يتغير التاريخ ما بينها وبين نيوزلندا، وسافرت منها يوم الإثنين الذي بعده بيومين قاصداً ساموا، واستغرق السفر إليها ساعة وربعاً، وقبل أن تنتصف المسافة ونحن في الجو تكلم الطيار وقال عند هذه النقطة يتغير التقويم، فهنا خط الطول الدولي، ولذلك سنصبح بعد أن نتجاوزها في يوم الأحد ديسمبر بدلاً من يوم الإثنين الذي كنا فيه عند القيام من (تونغا)، فعلى الركاب ملاحظة ذلك.

عندما وصلنا جزيرة (ساموا) أو ساموا الغربية، كما يجب نعتها لأن هناك ساموا أخرى تحت الإدارة الأميركية يسمونها الأمريكية، والأولى جمهورية مستقلة.

سألتهم عن التاريخ وعن اليوم الذي نحن فيه فأجابوا بأنه يوم الأحد الثاني من ديسمبر.

لذا رجع التاريخ بالنسبة لنا يوماً كاملاً بليلته ويومه الأسبوعي، وبمعنى أدق بالنسبة لي لقد كسبت يوماً إضافياً، وهذا أمر مهم لي، لأن المدة التي كنت قررت أن أبقاها هناك قصيرة.

من رارو تونغا إلى بابيتي:

عندما كنت أهم بمغادرة جزيرة راروتونغا، عاصمة جزر كوك أو (كوك آيلاندز) كان الناس فيها ينبهونني قائلين: إن يوم (تاهيتي) هو يومنا، وهذا أمر له أهميته، فبدلاً من أن يقولوا لك إن توقيت تاهيتي مثلاً هو توقيتنا كما يفعل سائر الناس كالذي يسافر - مثلاً - من الرياض إلى القاهرة يقال له: إن وقت القاهرة يتأخر عن وقتنا بساعة واحدة، والذي يسافر إلى بغداد في الشتاء يقال له: إن توقيت بغداد مثل توقيتنا؛ بمعنى أنك لا تغير الساعة هناك عما هي عليه في الرياض.

وإذا كان المسافر من هذه الجزيرة (رارو تونغا) إلى جزر تونغا غير البعيدة، فإن يومه يتغير، فيتقدم يوماً واحداً سواء في ذلك يومه الأسبوعي أو يومه الشهري، وكذلك الحال بالنسبة له إذا سافر إلى نيوزلندا غير البعيدة أيضاً؛ فضلاً عن سفره إلى أستراليا التي هي أبعد من ذلك.

قلت: إن (رارو تونغا) هي عاصمة جزر كوك، وكذلك فإن (بابيتي) التي سنسافر إليها هي عاصمة جزر تاهيتي، وكلتاهما جزيرة رئيسة عاصمة لعدة جزر، والاسم للجزيرة وللبلدة التي فيها التي هي العاصمة الفعلية.

و (جزركوك): مثل (تاهيتي) هي جزر منعزلة في ذلك الركن الجنوبي الشرقي القصي من مياه المحيط الهادئ، فكأنها في موقعها منه موقع نقطة منعزلة من رمال الربع الخالي في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية، لو كانت في إحدى زواياه قرى منعزلة مأهولة.

سفر آخر الليل:

وموعد قيام الطائرة هو الخامسة إلا عشر دقائق قبل الفجر، وعليَّ أن أكون في مطار (رارو تونغا) في الثالثة والنصف كما أخبروني.

وكنت وحدي في هذه الرحلة كلها، ولكنني لم أعدم من أتحدث إليه

فيها، وبخاصة أن الجزر التي زرتها حتى الآن كلها تتكلم الإنكليزية، لأنها كانت مستعمرات إنكليزية سابقة، أو هي ما عدا (ساموا) التي كانت تحت الإدارة الأمريكية، وهي أيضاً تتكلم الإنكليزية.

وكلها ذات لغات محلية، ولكنها غير مهمة، فالجميع يعرف شيئاً من الإنكليزية، أو يجيد الحديث بها، حتى السياح والزوار الذين يقدمون إليها كلهم تقريباً يتكلمون الإنكليزية لأنهم من هذه البلدان القريبة التي هي نيوزلندا وأستراليا التي تتكلم الإنكليزية يأتون إلى هذه الجزر ليتمتعوا بالشمس الحارة، ويسبحوا في الشواطئ الدفيئة الصافية.

وحتى الحيوان لم أعدم منه حديثاً، فقد كنت ساكناً في (رارو تونغا) في نزل - موتيل يسمونه (كي كي موتيل)، وكي كي: كلمة مكررة من مقطعين، كل واحد منهما مؤلف من حرف متحرك بعده ساكن، وهذا هو شأن لغاتهم هنا التي فيها شبه من هذه الناحية ببعض اللغات الإفريقية تحت خط الاستواء، حتى اسم الجزيرة هو كذلك مؤلف من أربعة مقاطع: (را)، (رو)، (تون)، (غا)، وتون: يلفظون بها بتاء ونون بعدها مباشرة، ولكنني كتبتها هكذا لأن هناك مثيلات لها في النطق تكتب بالعربية بواو بديلة من الضمة.

وقد صادفت في هذا النزل (الموتيل) كلباً أبيض لا أدري لمن هو، ولم أر من يعرفه من أهل هذا النزل، وقالوا: ربما يكون لأحد النزلاء، فكان يأتي إلى الجزء الذي أسكنه في النزل، وهو أشبه بالشقة الكاملة، فيبصبص بذنبه، ويخفض رأسه، ويمد عنقه لأضع يدي فوقه وفوق ظهره أربت عليه أو أدغدغه، فيجد ذلك منه استجابة؛ بل يجد له راحة، ولم يؤذني منه إلا كونه إذا غافلني حاول أن يلحس ما ظهر من الملابس من رجلي؛ إذ كنت ألبس في داخل النزل كما يفعل سائرهم هنا سروالاً قصيراً، فكنت أنتهره حتى عرف

كراهيتي لذلك. وله قصص لا تستحق الذكر هنا ربما لسخافتها، ولكن الغريب الوحيد قد تكون بعض الأشياء الصغيرة عند غيره كبيرة لديه لأنها تصادفه وهو في حالة نفسية تجعله يراها ذات بال.

واليوم قبل الخروج إلى المطار، وفي هذا الليل البهيم كان هذا الكلب الأليف يبصبص بذنبه ويمس ثيابي بأطراف أنفه كالمودع، وهو وداع له قيمته إذْ لم يودعني من أهل النزل، ولا من أهل البلاد، في هذه الحالة غيره، ولم أرَ منهم غير السائق الذي أمرته العجوز القائمة بأمر النزل أن ينام من أجل أن يوصلني إلى المطار في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

فأحضر زوجته وطفله إلى النزل وناموا فيه من أجلي.

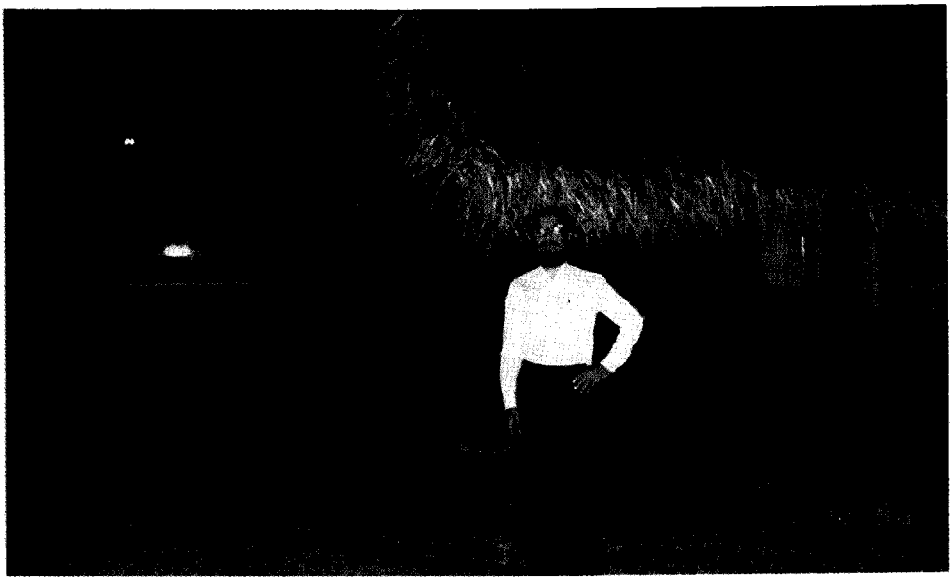
وكانت العجوز واسمها (مارتا) قد استقبلتني في المطار كما تستقبل أي زائر لهذه الجزر، تخرج إليه مع سائق النزل وبعض العاملات فيه يستقبلن من يفد بالطائرة إلى جزيرتهم، والطائرة هي الوسيلة الوحيدة التي تنقل الزوار إليهم، وتعرض عليهم أن يسكنوا في نزل (كي كي موتيل) هذا الذي أغادره الآن.

وذلك أن الجزيرة كلها ليس فيها إلا فندقان كبيران، أما الأنزال (الموتيلات)، فهي كثيرة لأنها جزر سياحية يأتي إليها السياح من أستراليا ونيوزلندا مع أسرهم، فينزلون في هذه الأنزال التي يمكنهم أن يطبخوا فيها طعامهم بأنفسهم، ويدخلوا إليها بسياراتهم.

سار السائق بسيارته إلى المطار في حوالي الثالثة بعد منتصف الليل، أو النوم يداعب جفنيه، بجانبه زوجته التي ترضع طفلها، وأنا أشعر بالحرج لتكلفها المشقة من أجلي، ولكن لا يمكن الوثوق في هذه الجزر الصغيرة بأي سائق سيارة أجرة بأن يأتي في الموعد المطلوب من الليل، ولا يمكن لي أن أخاطر بذلك، فقد أفقد رحلتي إلى تاهيتي التي لا تتكرر إلا مرة واحدة في الأسبوع.

عندما وصلت إلى المطار وجدت بعض الركاب قد سبقوني إليه لأنني تأخرت نحو ربع ساعة، فحجزت مقعداً أمام النافذة من أجل أن أشاهد المناظر التي تكون تحتي عند الوصول إلى (بابيتي) عاصمة جزر تاهيتي.

ومن طريف ما فعلته هذه الشركة وهي شركة بولينزيان نسبة إلى الشعب الذي يسمى بالبولينزيين، وهم الجنس السائد في هذه الجزر الجنوبية الهادئة، نسبة إلى المحيط العظيم الهادئ أنني رأيتها قد أعدت ماء حاراً وأكياساً صغيرة من القهوة مع السكر والحليب، فيستطيع كل مسافر أن يضع لنفسه فنجاناً أو أكثر من القهوة ويشربه مجاناً إسهاماً من الشركة في طرد النعاس عن عيون المسافرين في هذا الليل البهيم، ولأنها تعرف أنه لن يكون في المطار إلا المسافرون معها والموظفون، لأن جزيرتهم صغيرة وليس هناك رحلات أخرى الآن.



المؤلف في مطار رارو تونغا قبل الفجر

ودفعت رسم مغادرة المطار عشرين دولاراً نيوزلندياً، ويساوي ذلك اثني

عشر دولاراً أمريكياً، ولم تكن الأقطار التي مررت بها في المنطقة من قبل قد استوفت مني رسم مغادرة المطار لكون جوازي (دبلوماسياً) إلا أنهم هنا في (جزر كوك) ليس عندهم سفارات أجنبية؛ لأنهم كما قالوا في استمارات الدخول لبلادهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم بتعاون أو اتحاد حر (اسيو سيشن) بينهم وبين نيوزلندا، ولذلك صار التمثيل السياسي لبلادهم في الخارج منوطاً بها.

وسرنا من قاعة الاستقبال في المطار إلى مكان المغادرة، فوجدنا ثلاثة رجال وامرأة يفتشون الحقائب والأمتعة اليدوية للركاب بأيديهم، لأنه ليست لديهم أجهزة كهربائية لذلك، وأما الأجسام فإن تفتيشها بالكهرباء عن طريق المرور تحت الباب المعتاد.

ويتسم تفتيشهم بالسهولة وعدم التدقيق، فهذه البلاد آمنة هادئة ولا تكدرها اضطرابات سياسية.

وحدث عند مكتب الجوازات أمر لم أفهمه، وذلك أن التي عليه تختم جوازات الركاب هي فتاة جميلة من أصل أوروبي، والأغلب أنها من نيوزلندا، عندما رأت جوازي عربياً أخذت تقلبه وبخاصة عندما عرفت أنه يبدأ من اليمين إلى اليسار، كما تعجبت من صورتي فيه بالملابس العربية.

وكان خلفي صف من الركاب فختمت جوازي، وأعطتني إياه مع بقية الأوراق إلا أنها أشارت إلى كرسي وحيد بجانبها وقالت: أجلس عليه، ومضت في النظر في جوازات بقية الركاب، وخشيت أن يكون في الأمر سوء فهم، وبخاصة أن ضابطاً حضر من الداخل، ولم يقل لي شيئاً، وبدأ الركاب بمغادرة القاعة إلى الطائرة، رأيت ذلك من خلال النافذة، وهي ماضية في عملها لم تكلمني، وبعد أن انتهوا جميعهم من عندها، وبقيت جالساً وحدي على الكرسي، وهي لم تقل لي شيئاً أخذت مني جوازي ونظرت فيه ثانية، ثم أعطتني إياه وقالت: تستطيع أن تتصرف. فذهبت كأنما أفلتُّ من عقال،

وكنت آخر الركاب صعوداً إلى الطائرة.

ولم أر لعملها هذا تفسيراً إلا أن يكون محبتها في الاطلاع على جواز غريب؛ لأن هذه الجزر لا يصل إليها العرب، أو حتى جيران العرب كالهنود في العادة، أو لكونها رأته سياسياً فرأت ألا أركب مع زحمة الركاب، وعلى كل حال فهي لم تكلمني في آخر الأمر.

والطائرة من طراز بوينج ٧٣٧ مكتوب عليها أنها لشركة بولينيزيا، ولكن المذيع ذكر أنها يوتي أير الفرنسية بالتعاون مع شركة أخرى.

ولم تعلن مضيفة الطائرة المسافة ما بين (رارو تونغا) و (بابيتي)، وقد سألتها عنها بعد ذلك، فقالت: إنها ساعة وخمس وثلاثون دقيقة.

ولم تكن الطائرة مليئة بالركاب؛ بل كانت فيها مقاعد كثيرة خالية.

وقامت في الموعد المحدد لقيامها تقريباً من دون تأخير، وهذا أمر نادر، ولكن الأندر منه أن تقوم طائرة قبل الموعد المحدد لقيامها، وكان ذلك في الرحلة مع هذه الشركة (بولينيزيا)، وعلى طائرة مماثلة إن لم تكن هي هذه الطائرة نفسها، وذلك من جمهورية ساموا الغربية إلى جزيرة (ساموا الأمريكية)؛ حيث كان الموعد المحدد لقيام الطائرة حسبما هو مكتوب في جدول الرحلات وفي الحجز على التذكرة هو الثامنة صباحاً، وقامت في الثامنة إلا ثلاث دقائق، وقد ذكرت ذلك في كتاب: « نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض ».

وسيكون الطيران فوق مياه المحيط الهادئ لأننا سنطير من جزيرة فيه إلى جزيرة أخرى.

غرة الفجر:

عندما ارتفعت الطائرة عالية في الجو أكثر أخذت غرة الفجر بالوضوح، والغرة في اللغة - إن لم تكن تعرفها - هي بياض يكون في جبهة الفرس، وكان منظر أولى تباشير النور بهيجاً باعثاً للسرور، غير أن السرور الأكثر هو مشاهدة ولادة النهار من فوق السحاب، وفي أجواء المحيط الهادئ العظيم.



ذوب الذهب قبل الشروق في سماء المحيط الهادئ

وكانت أولى الفوائد من هذه المشاهدة أن عرفت أن الطائرة وقد أخذت اتجاهها الصحيح المستمر إلى تاهيتي أنها كانت تطير إلى جهة هي اليسرى من الشرق، وكنت أظنها ستطير إلى الجهة اليمنى من الشرق كما يدل على ذلك موقع (تاهيتي) في الخريطة بالنسبة إلى (جزر كوك)، ولكن الطيران له اعتبارات أخرى، ومنها تحديب الكرة الأرضية والموقع الطولي والعرضي للبلاد التي تقصدها، ومن ذلك مثلاً ما تذكرته أنني شاهدت أول نور الفجر

فوق المحيط الأطلسي، وكنا قادمين من نيويورك إلى لندن منذ عشر سنوات، فوجدت أن الطائرة متجهة جهة الشمال الشرقي إلى لندن، مع أن المفروض أن تتجه جهة الشرق قصداً، غير أن الطائرة إذا أخذت إلى الشمال قليلاً في هذه الحالة فإن عرض الكرة الأرضية يكون أقل، لأنه كلما بعد المكان عن خط الاستواء قلت المسافة بين أجزاء الدائرة فيه حتى تكاد تتلاشى قرب القطب.



قبيل شروق الشمس فوق السحاب في أقصى جنوب المحيط الهادئ

وكانت فرصة لتصوير انتشار النور ثم بزوغ الشمس، فجعلت أرقبه وألهاني ذلك عن أي شيء آخر داخل الطائرة حتى إن المضيفة وهي تأتي باستمارات الدخول، وكذلك وهي تعد للشاي لفت نظرها ذلك وعجبت منه.

ورغم كون الطائرة تطير على ارتفاع يقرب من ثلاثين ألف قدم، فإن غيمة مستطيلة معترضة في الأفق الشرقي عند النقطة التي بدأ منها الضوء في

الانتشار قد عزلت ما بينها وبين الأسفل، فصار ما تحتها ذا لون نحاسي جميل، وما فوق الغيمة لون رمادي صافٍ.

وبعد قليل اتسع النور، وامتدت له أجنحة ذهبت يميناً ويساراً، وصار أسفله نحاسياً ملتهباً، وأعلاه رمادياً هامداً.

وكان النظر إليه وهو كذلك متعة قل أن تعادلها متعة، إلا أن غيمات أخرى تضافرت فسترت أسفله النحاسي، وبقي أعلاه الرمادي الذي ما لبث أن أخذ يصفو شيئاً فشيئاً حتى صار فضياً أو كاد.

ثم فجعت فيه حين حال سحاب فوق ذلك السحاب دون ما كنت أريده من تصوير المنظر في لحظة الشروق.



جبال السحب في سماء المحيط الهادئ

ولكن كان منظر السحاب نفسه جميلاً أخاذاً فنحن نطير فوقه، وكنت أشاهد أعاليه سوداً غامقة قبل انتشار النور، فاستحالت إلى بيض رمادية بعد ذلك، فكأنَّ نور الشروق قد أشاب مفارقها كما تشيب مفارق

الرجل الفتي قبل أوان المشيب.

ومن عجيب أمر السحاب حينما يرى من الطائرة أنه أنواع أكثر من أنواعه التي تشاهد من الأرض، ومن ذلك أننا وصلنا إلى منطقة فيها السحاب العالي يبدو منتصباً كالجبال البيض، التي بعض هضابها منعزل عن بعض، فكان بعضها قد حال تماماً بيني وبين متابعة المنظر في جهة شروق الشمس، إلا أننا أبعدنا عن السحاب، أو هو أبعد عنا، فالطائرة والسحاب كلاهما في حركة دائبة، ووصلنا إلى منطقة فيها غيم معترض خفيف حجب شروق الشمس، إلا أنه لم يحجب الألوان التي أحدثها انعكاس الشروق على السحب التي أسفل منه.

ومن ذلك جزء صار في لون الذهب المذاب فصورته، وسطع نور الشمس بعد ذلك عالياً، ولا تزال أسافل السحب تحته تتقد وكأنها الذهب الوهاج.

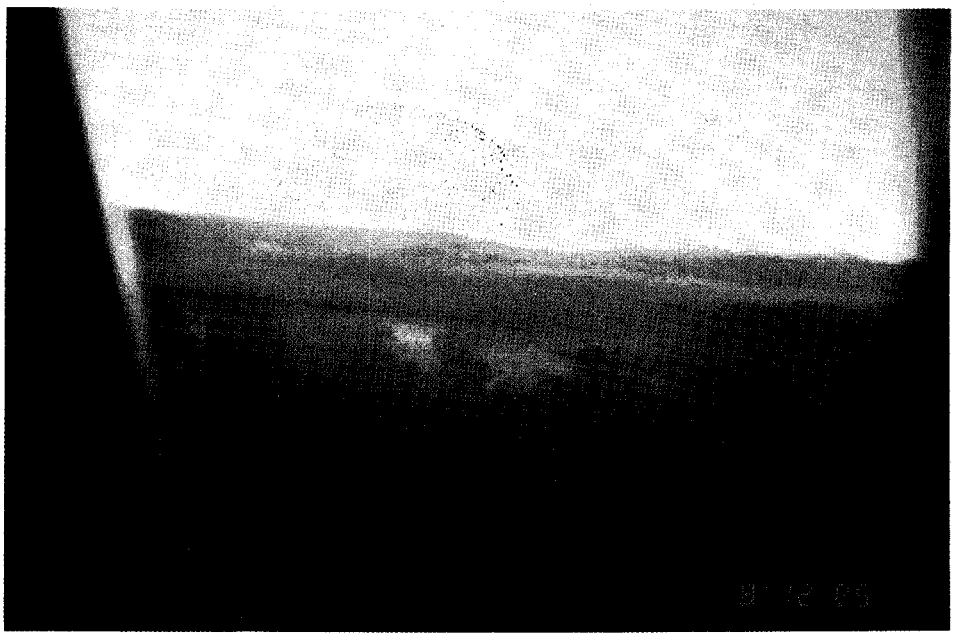
وجاءوا بالفطور وفيه جزء قد مسه لحم الخنزير، ولكنه معزول بآنية وحده فاجتنبته، وأتيت على الطيب من الطعام، ومنه طبق صغير فيه الفاكهة الاستوائية أو شبه الاستوائية مما أنتجت هذه الجزر، وهو الباباي والأناناس والموز، وعليه قطعة من جوز الهند الطري وهو ثمار النارجيل.

وأحسست للطعام بلذة غريبة ربما كان مبعثها السرور بهذا المنظر الجليل لشروق الشمس من الجو الشاهق ولطبقات السحب المختلفة الأنواع والألوان لا سيما بعد أن غمرها ضياء الشروق.

وشيء آخر مهم وهو فرحي وسروري الذي لا أستطيع أن أصفه بالإقبال على هذا البلد البعيد الذي كنت أتمنى الوصول إليه وأنا أرى أمنيتي الآن قاربت أن تتحقق، وهو شعور أحسست بمثله عند الاقتراب من الوصول إلى مملكة تونغا التي كنت فيها قبل أيام.

ولم يكن يكدر ذلك إلا شيء أحس به من الخوف من سمة الدخول،

لأنني أرسلت جوازي إلى السفارة الفرنسية في جدة للحصول على سمة الدخول إلى تاهيتي، فهاتفني المسؤول من القسم القنصلي فيها وقال: إنني قد وضعت على جوازك سمة الدخول إلى فرنسا سمة سياسية متكررة لمدة ستة أشهر، وأما سمة الدخول إلى (تاهيتي) بالذات فإنه ليس لدينا تفويض بذلك، ويمكن أن نرسل مبرقة (تلكساً) اليوم إلى الحاكم العام للجزر فيأتي جوابه غداً.



اللون الأشهب تحته اللون الذهبي قبل الشروق فوق السحاب في جواء المحيط الهادئ الجنوبي

وكان الوقت ضيقاً فقلت له: إنني لا أستطيع الانتظار إلى الغد فسألني عن الموعد المتوقع لوصولي فقلت له: إنني لا أتيقن من ذلك لأنني لن أذهب قاصداً إلى (تاهيتي)، وإنما سأمر ببلاد أخرى قبلها لا أدري عن مدة الإقامة فيها.

فقال: إنني سألتك هذا السؤال من أجل أن نبرق لحاكم تاهيتي بوصولك، فلا يصح أن تصل من دون أن تعرف حكومة الجزر بذلك، إلا إذا كان هناك في الحكومة من يعرفك ويعرف حكومتها بك.

فقلت له: إنني ذاهب إلى هناك في إجازة، وليست لي صلة عمل بحكومة (تاهيتي). فقال: ولو كان الأمر كذلك فإنه لا يجوز مطلقاً أن تصل إليها قبل أن نخبر حكومتها.

وتركت الحديث معه وهو غير مقتنع، وجاء الموظف الذي أرسله إليهم في جدة يحمل سمة الدخول إلى فرنسا.

وفي (كانبرا) عاصمة أستراليا سألت السفارة السعودية سفارة فرنسا هناك عما إذا كانت سمة الدخول للأراضي الفرنسية كافية للدخول إلى تاهيتي، فأجابت: إنها كافية، ومع ذلك قال لي بعض الإخوة في نيوزلندا: إن تاهيتي تحتاج إلى سمة للدخول خاصة بها، وهذا هو ما سبّب خوفي.

في مطار بابيتي:

تاهيتي: اسم لمجموعة من الجزر عاصمتها جزيرة (بابيتي)، وهي التي فيها المدينة الرئيسية، وفيها المطار، وقد أخذ الطيار ينزل بطائرته رويداً رويداً من مسافة بعيدة لأنه لا يخشى من العوائق فوق مياه المحيط العظيم التي هي في منظر العين هادئة كاسمه، وإن لم تكن كذلك في كل وقت أو في كل جزء من أجزائها.

ومع تدني الطائرة فإن البصر لم يدرك إلا منظر السماء وانعكاس الشمس فوق مياه المحيط، وقد رسمت نهر فضياً لامعاً كأنه المجرة المضيئة، وذلك لكوننا نزلنا كثيراً، فصارت الشمس أدنى في النظر إلى مستوى الأرض مما كانت عليه عندما كنا في نهاية الارتفاع، فكأنما شاركتنا الشمس التدني إلى مياه المحيط.

ثم بانت جبال (بابيتي) خضراء ذات رؤوس شامخة، ووديان بينها تبدو عميقة، وبعض الجبال تكاد ترى كما ترى الحيطان الواقفة، ويتفرق

السحاب من فوق قممها حتى يصل في انحداره إلى أكتافها.

وكانت الطائرة تقترب من مياه المحيط حتى كادت تلامسها من دون أن نرى المطار؛ لأنه في الجهة الأمامية لها، وهو على البحر مباشرة؛ بل إن جزءاً منه كان ماء، فدفنوه ليوسعوا به المطار؛ لأن المنطقة ذات مياه ضحلة قرب الشاطئ وإن لم تكن عريضة، ولامست عجلاتها الأرض، ولامس نفسي شعور غريب بالغبطة لهذه الأمنية التي تحققت بعد محاولات عدة لم تكن ناجحة، وهي زيارة (تاهيتي).

هبطت الطائرة في الساعة السادسة والنصف بتوقيت (رارو تونغا) التي غادرناها.

وقد بلغت مدة الطيران ساعة ونصفاً، وليس كما ذكرت لنا المضيفة من قبل أنها ساعة وأربعون دقيقة.

رأيت المطار عامراً بالحركة، فيه عدد من الطائرات الكبيرة والصغيرة، وهذه من الفروق ما بينه وبين المطارات التي رأيتها منذ مغادرتي مطار أوكلاند في نيوزلندا، فالمطارات من (تونغا) أولها إلى (رارو تونغا) آخرها كلها صغيرة ليس فيها طائرات تذكر.

وكان أول مظهر مميز لجزيرة (بابيتي) عاصمة تاهيتي من الطائرة ومن أرض المطار وجود جبال خضر مرتفعة ذات رؤوس متعددة بعضها حاد الوقوف، ويفصل بينها مسافات من الأماكن المنخفضة العميقة وهي خضراء إلا أنها ليست في كثافة خضرة جزيرة (ساموا الأمريكية) إلا في بعض الأماكن، وفيها عدد كبير من أشجار النارجيل، لكنها ليست من الكثرة مثل التي عليه في البلاد التي قبلها.

ولذلك رأينا الأعشاب خضراء قرب مدارج المطار خضرة طبيعية لم يمسها الاصطناع.

نزلنا من الطائرة سيراً على الأقدام كما هي في كل المطارات التي بعد أوكلاند النيوزلندية، وفوجئت عند دخول أبنية المطار بأمرين:

أولهما: أنها فاخرة إلى درجة غير مألوفة في هذه الجزر في المحيط الهادئ، حتى ولا في كثير من بلدان الشرق المتخلفة في الإدارة.

والثاني: أن جميع الموظفين، ومنهم أربعة على مكاتب الجوازات كلهم من الفرنسيين، وليس فيهم من أهل الجزر الأصلاء الذين هم من (البولينيز) أحد، والمراد بالفرنسيين هنا من هم من أصول فرنسية، وإلا فإن الموظفين كلهم يعتبرون من حيث التبعية الجنسية من الفرنسيين.

وبعض الموظفين وبخاصة النساء قد ظهر عليهن تأثير الجو الحار الرطب، فذبلت نضارتهن، وذهب الإشراق من وجوههن، ولا شك في أنهن ممن أمضين مدة طويلة في هذه الجزر.

وقفت عند أحد ضباط الجوازات وهو فرنسي مهذب، وكنت مشفقاً من أن يذكر شيئاً عن سمة الدخول الخاصة إلى (تاهيتي)، ولكنه لم يفعل، بل رحب بي وجاملني، وسألني عن المدة التي أريد قضاءها هنا فقلت: خمسة أيام.

وانقضى الأمر من عنده بسرعة، فذهبنا إلى حيث تسلم الأمتعة، ورأيت لأول مرة بعد المطارات الصغيرة التي ذكرتها أن فيها سيوراً متحركة حديثة؛ بل على أحدث طراز، لم أر مثيلاً لها إلا في مطار الملك خالد الدولي في الرياض، وربما كان السبب في ذلك أن المطار كله حديث الإنشاء، أو حديث التجهيز.

ومثلما رأينا على مكاتب الجوازات أربعة ضباط من أجل عدم تعويق الركاب، وإلا فإن طائرتنا صغيرة نسبياً وغير مليئة بالركاب، فإن في منطقة

تفتيش الجمارك خمسة من الموظفين، مررت بامرأة منهم فلم تطلب مني مباشرة أن أضع حقائبي على منصة التفتيش، وإنما سألتني عما فيها فأريتها جوازي، فانحنت احتراماً، وقالت وهي تشير إلى باب الخروج: تفضل.

ورحت أبحث عن مكتب لحجز الفندق، فوجدته في مكتب لاستعلامات السياح فيه امرأة فرنسية متغيرة أخبرتها بأنني أريد فندقاً تكون أجرته في حدود أربعين دولاراً أمريكياً إلى خمسين، فقالت: نعم هو (باسفيك هوتيل)، أو فندق المحيط الهادئ، واتصلت بهم بالهاتف وقالت: إنهم يقولون إن الغرف عندهم كثيرة.

فسألتها عن الوصول للفندق، وكانت قد سألتني عما إذا كنت أرغب فندقاً في وسط المدينة أم في الريف؟ فقلت: في وسط المدينة، لأنني أعرف فنادق الريف عندهم يتخذونها لمن يريد أن ينفق وقته سابحاً في الماء، أو مستلقياً على ظهره طلباً للراحة، ويقضي فترة من وقته مستمتعاً بالسير على رمال الشاطئ، وهي تنفر من بين قدميه إذا سفتها الأمواج، ولست واحداً من أولئك، وإنما أريد أن أمضي المدة القليلة التي سأمضيها في (تاهيتي) في الحركة، والحصول على معلومات كثيرة في مدة قصيرة.

قالت: أما الحافلة فإنها مناسبة، إلا أنها تحتاج إلى وقت في انتظار الركاب ثم توزيعهم على الفنادق، وأما سيارة الأجرة فقد تكون أفضل لك، وهي تأخذ كذا فرنكاً، ولم أكن أعرف قيمة فرنكهم، وإنما طلبت أن تذكر ما يساوي ذلك بالدولار الأمريكي، وهنا لا بد من وصف الدولار بأنه أمريكي؛ لأن عدة بلدان مجاورة، منها أستراليا ونيوزلندا عملتها دولارها الخاص، والزوار منها لهذه الجزر أكثر من الزوار الأمريكيين.

قالت الموظفة: إن أجرة (التاكسي) نحو ثمانية دولارات، وكنت صرفت مائة دولار في مصرف المطار، وأعطاني بياناً بالمبلغ لم أتأمله.

في بلدة بابيتي:

وبلدة بابيتي يسمونها (فيل) بالفرنسية، بمعنى المدينة أو البلدة، وإنما اسمها بلدة لأنها أصغر من المدينة، وهي عاصمة الجزر، ومسماة على اسم الجزيرة التي تقع فيها (بابيتي).

انطلقت السيارة من المطار قاصدة المدينة في وسط كله اصطناعي، بمعنى أنه متمدين، وليس على طبيعة فطرته، حتى إنني رأيت جسراً فوق الطريق تسير فيه السيارات العابرة، والسيارات كثيرة والطريق نفسه جيد.

وخيل إلي أنني في إحدى المدن الصغيرة الأوروبية مما تسبب في انقباضي، فأنا لم أتجشم عناء السفر إلى هنا من أجل أن أرى بلدة أوروبية أو حتى بلدة من بلدان العالم الثالث النظيف.

وصلنا الفندق بسرعة، وتبين أن الطريق إليه من المطار طوله ستة كيلومترات، وطلب سائق السيارة أجرته، وهي ألف وخمسمائة فرنك، فأسرعت أعطيه إياها ظناً مني أنه مثل أهل أستراليا أو نيوزلندا ذوي الأصل الأوروبي الذين لا يطلبون أكثر مما يستحقونه في العادة، ولأن الموظفة في المطار كانت قد أخبرتني والسائق يسمع أن الأجرة في حدود ثمانية دولارات أمريكية، إلا أنه بعد أن ذهب وعددت النقود تبين لي أنه أخذ مني ما يساوي اثني عشر دولاراً أمريكياً.

ولم يمنعه مظهره الأوروبي، وإن كان متغيراً قد غشاه صدأ البلاد الحارة الرطبة من أن يأخذ أكثر مما يستحقه بناء على ثقتي به، وإلا كنت تركته حتى أتيقن من أجرته الحقيقية من أهل الفندق.

وجدت الفندق في قلب المدينة على الشارع المحاذي للبحر مما يسمى بالكورنيش؛ لأن بينه وبين البحر بعد الشارع ميداناً واسعاً ممتداً على امتداد

الشارع مما يلي البحر، فيه الميناء، وفيه ميناء للقوارب والعبّارات التي تذهب وتجيء من جزر تاهيتي الأخرى.



شارع في بابيتي (تصوير المؤلف)

وجدت في مكتب الاستقبال شاباً غليظ الخلق - بفتح الخاء - في كل شيء، فهو بدين، وكل شيء فيه منتفخ حتى جفناه وشفتاه، وعادة أهل هذه الجزر الجنوبية الهادوية غلظ الأجسام في أكثر الأشياء إلا في الجفون، فسألته عن أصله فقال: إن فيه عرقاً صينياً مع أنه من أهل البلاد.

ذكر لي أن أجرة الغرفة في الواجهة الأمامية ٤٩ دولاراً أمريكياً، وفي الخلفية من الفندق ٤١، فاخترت الأمامية، وأنزلني في غرفة في الطابق السادس تطل على منظر جيد وهو ميناء الجزيرة الذي تشرف عليه جبال تاهيتي الخضر، ولكنه مليء بالسفن التي تطلق أبواقها في بعض الأجواء وبالعبّارات التي كان صوت محركاتها مزعجاً عند الانطلاق، إضافة إلى أصوات السيارات التي تجوب الشارع المحاذي للبحر من أمام الفندق.

وانقبضت نفسي لهذا المنظر، وبخاصة أنني لم أر حتى الآن إلا عدداً لا يكاد يذكر من أهل البلاد الأصلاء، وإنما غالب الذين رأيتهم هم من أصل فرنسي متغير اللون، أو من جنس مختلط.

وقارنت - في ذهني - بين هذا المنظر غير المحبب وبين منظر الجزيرة التي قدمت منها، وهي (رارو تونغا) عاصمة (جزر كوك) التي ذكر أهلها أن أعلى بناء فيها لا يصل إلى طول شجرة النارجيل التي تظلله، أما هذه البلدة فإن الفندق الذي أنا فيه هو من سبع طبقات، وغالب الأبنية المجاورة من ثلاث أو أربع.

النظرة الأولى:

أسرعت بالخروج من الفندق أتجول على قدمي في البلدة وفي الميدان المجاور للبحر، فوجدتها بلدة ذكرتني بما كانت عليه أجزاء من مدينة بيروت في وقت عزها، وذكرتني أيضاً ببعض المدن الصغيرة في المملكة المغربية.

فهي ذات بيوت إسمنتية متعددة الطوابق، واللافتات كلها بالفرنسية ما عدا بعضها بالإنكليزية.

وليس فيها ما يذكرك بأنك في جزر تاهيتي التي اشتهرت في العالم بغرائب العادات والألبسة عند أهلها، فقد رأيت عدداً من السكان الأصلاء هنا، أو من مظهره هو ذلك، غير أنهم كلهم من رجال كانوا يرتدون الزي الإفرنجي، وليس على أحد منهم لباس من الألبسة الوطنية.

وأما الحوانيت فإنها كالحوانيت الأوروبية الصغيرة، وكذلك المشارب والمقاهي وفروع الشركات.

ولم أجد أية متعة في مواصلة السير لأنني في الحقيقة لم أر جديداً على

عيني، أو شيئاً أصيلاً في نفسي، فجلست في مقهى على الرصيف، وجاءت العاملة أوروبية السحنة، مضيئة الوجه، وإن لم تكن شقراء، وبدلاً من أن تسألني عما أريد جلست بجانبي في أحد كراسي المائدة وسألتني عن بلدي؟ فقلت لها: عربي، فهزت رأسها علامة الفهم الكامل بزعمها، وقالت: لم أر عربياً من قبل، إن بلادكم بعيدة، فسألتها عن أصلها، فقالت: إنها إسبانية، ولا أدري كيف جاء أهلها إلى هذه البلاد البعيدة.



الشارع العام في بابيتي (تصوير المؤلف)

سألتها عن أهل البلاد الأصلاء وأين أجدهم، وأين تاهيتي التي كنت قد قرأت عنها في الكتب والنشرات السياحية؟

فقالت: إن اليوم هو الأحد وغداً الإثنين ستراهم هنا بكثرة، وأما تاهيتي التي ذكرت فإنها في خارج المدينة هذه.

شربت الشاي وأنا أسأل نفسي كما فعلت عندما رأيت (نيوزلندا) لأول مرة عما إذا كان من الحكمة أن أجيء نيوزلندا البعيدة من أجل أن أرى

قطراً أوروبياً لا يبعد عن بلادنا إلا يسيراً بالنسبة إلى بعد نيوزلندا، وقلت مثل ذلك في تاهيتي.

وأما عاملة المقهاة فقد عرفت أن العادة عندهن كلهن أن يفعلن ذلك، فتأتي عاملة المقهاة أو المشرب، وتجلس مع أحد الزبائن، وقد تمازحه إذا كانت تعرفه، وأحياناً يكون مزاحهما والجميع يشاهدونه.

ثم شاهدت بعض النسوة من أهل البلاد الأصلاء وقد بقين على الثياب القصيرة التي هجرتها الغربيات منذ سنوات، وهن غلاظ الأجسام على رؤوس أكثرهن شعور طويلة ذكرتني بشعور السيلانيات والهنديات الجنوبيات من اللاتي يكثر النارجيل في بلادهن، ويستعملن الزيت الذي يستخرج من ثمرة (جوز الهند) دهاناً للشعر.

ولا يكاد يوجد فيهن جميلات، ويغلب عدم التناسب على قوامهن.

أما رجالهن فإن أكثرهم قد جانبته الأناقة، بل بعد عنها في ثيابه، وكيف يلتزم بأناقة الثياب من عدم أناقة البدن، فبعضهم ترى عليه سروالاً قصيراً وقميصاً قصير الأكمام يدعه مفتوحاً فيبدو بطنه الذي هو بارز بطبيعته، وكأنما يريد أن يتقدم سائر الجسم.

الغلاء الفاحش:

كنت قد التقيت بعدد من السياح الأستراليين النيوزلنديين في الجزر التي زرتها من قبل، فسألتهم عما يعرفون عن تاهيتي من حيث الفنادق وغيرها فكلهم كان يبالغ في أن الغلاء فاحش في تاهيتي، ويحذرونني من ذلك، فكنت أذكر لهم معنى المثل العامي: « ليلة يا مكاري » إنها ثلاثة أيام أو أربعة سأصبر فيها على الغلاء.

واليوم وجدت مثلاً على ذلك وهو أن ثمن فنجان الشاي الذي دفعته في المقهاة وهو فنجان واحد ليس إبريقاً صغيراً يتسع لملء فنجانين اثنين مثلاً قد بلغ مائتين وعشرين فرنكاً، ويساوي هذا دولارين أمريكيين إلا ربعاً، على حين أن مثيله في المقهى في ساموا الغربية إلتى كنت فيها قبل أيام كان سامواياً، ويساوي ذلك أقل قليلاً من نصف دولار أمريكي، وعلى ذلك فقس. وهذا أول الغيث بعد سيارة الأجرة التي دفعت لسائقها اثني عشر دولاراً أمريكياً لمسافة ستة كيلومترات.

بعد شرب الشاي في المقهاة واصلت السير في بلدة (بابيتي)، وتواصل عدم الارتياح علي، إذ لم ألاحظ أي شيء يستحق الاهتمام والحضور إليها في هذا البعد السحيق.

ووصلت في تجوالي على الميدان المطل على البحر قريباً من الميناء إلى سيارات نقل صغيرة قد تحولت إلى مطاعم أوقفها أصحابها يبيعون فيها الطعام والشراب على الناس، ويقبل عليها الجمهور لأنها أرخص كثيراً من المطاعم التي تستأجر محلات غالية، وتستخدم موظفين، فاشتريت فطيرة (ساندويتشاً)، قال البائع: إنه من لحم البقر، وتبين أنه ليس فيه من ذلك إلا ما يقطع حلف الحالف بخمسمائة وعشرين فرنكاً، أي أربعة دولارات أمريكية، وهذا يعتبر من هذا البائع الرخيص.

وعاودت السير الذي ليس فيه من المتعة إلا كونه في (تاهيتي) البعيدة، ومعظم المحلات مغلقة لأن اليوم هو يوم الأحد، لذلك كان عدد الناس في الشوارع قليلاً.

وتكررت رؤية بعض السكان الأصلاء، وفيهم نساء من الجنس الذي يسميه الإفرنج (بولينيز)، ولم يبق عليهن من أصالتهن شيء إلا ما خلقه الله فيهن من غلظ الأجسام، وضخامة البطون والأرداف، أما اللباس فإنه الإفرنجي القصير، والشيء الوحيد الذي يكاد يميزهن هو حرص الشابات

منهن على إرسال شعورهن السود الطويلة، ووضع زهرة خلف إحدى الأذنين، وهو تقليد موجود عند النساء في أكثر جزر المحيط الهادئ الجنوبي التي زرتها في هذه السفرة.

وبعضهن - وهن قليلات - على رؤوسهن أكاليل الزهور على هيئة التيجان، وهذا أيضاً تقليد عريق في تلك المنطقة.

وقد رأيت أكثر من واحدة منهن قد وضعت على رأسها إكليلاً من الأعشاب الخضر بدلاً من الزهور التي تتطلب الجمع، وقد تحتاج إلى مكان أبعد من السكنى في هذه البلدة الاصطناعية بخلاف الساكنين في الجزر التي لا تزال حياتها طبيعية، فإنهم يحصلون على الزهور الطبيعية من أي مكان أرادوه.

وقد رأيت هنا شيئاً لم أره في الجزر السابقة، وربما كان ذلك بسبب غفلة مني عن ملاحظة بعض الرجال يضعون خلف آذانهم زهرة كما تفعل النساء مما لم أر له مثيلاً في جزر كوك وتونغا وساموا بقسميها المستقل والأمريكي، وهي التي زرتها قبل تاهيتي، وكلها يقال عن سكانها إنهم من البولينيز، وإن كانوا يختلفون من حيث اللغة والتقاليد لتباعد الجزر وانعزالها خلف حيطان منيعة من مياه المحيط الهادئ في الزمن القديم قبل أن تتغلب عليها الطائرات والسفن السريعة.

وجولة الأصيل:

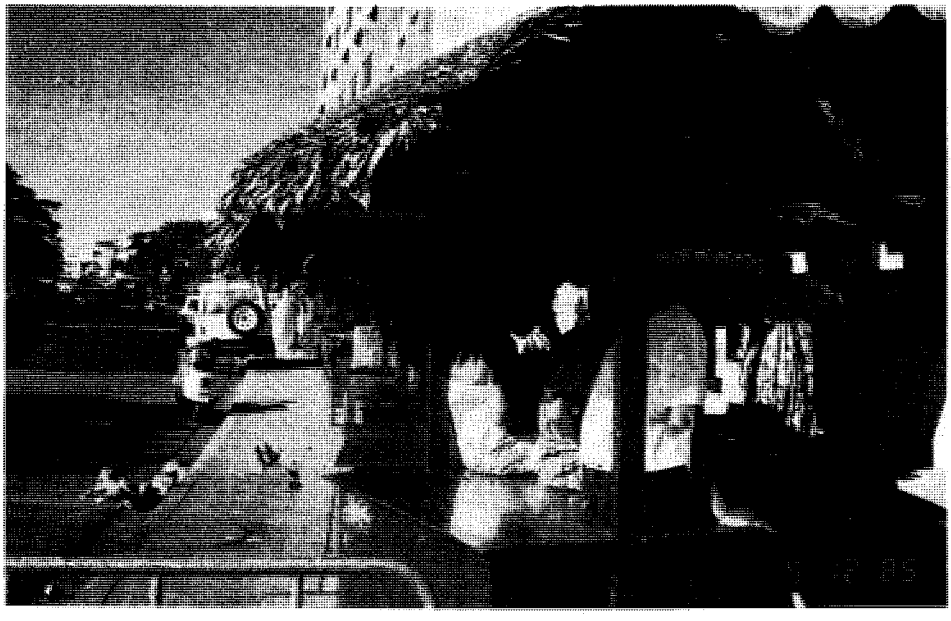
هذا اليوم الأحد كما قدمت، وقد سألت الفندق عما إذا كانت توجد جولة سياحية هذا اليوم في الجزيرة يمكن أن أدركها فقال: إن الجولة الوحيدة قد فات موعدها، فحجزت لجولة الغد.

واسترحت قليلاً في الفندق الذي كان مكيفاً وباب شرفته الواسعة

المطلة على الميناء الذي تنتصب الجدران الجبلية الخضر حوله كان موصداً محكم الإغلاق؛ غير أن ذلك لم يمنع من تسرب بعض أصوات المحركات إلى داخل الغرفة، وبخاصة أصوات محركات السفن، ومحرك كبير آخر مجاور للفندق، ربما كان مولداً كهربائياً.

فخرجت في الأصيل أتجول أيضاً على قدمي من دون هدف ظاهر غير المتعة في السير في بلد لم أره من قبل.

ووصلت في جولتي إلى مكان يبيع الأطعمة الخفيفة وفيها (الهمبرجر) الأمريكي المشهور، فطلبت واحداً منها جاء بعد لأي؛ لأن الزحام شديد عليه باعتباره أرخص من غيره، أو ربما لكون اليوم الأحد قد أغلقت فيه بعض المحلات.



حوانيت البيع الصغيرة على الشارع العام في بابيتي

فكان ثمن الذي زعموه رخيصاً - وهو دون الأمريكي المعروف - ستمائة فرنك، أي أكثر من أربعة دولارات.

وعلى ذكر الدولار، فإن الفندق أخبرني أنهم يصرفون الدولار بمائة وخمسة وعشرين فرنكاً محلياً، وفرنكهم غير الفرنك الفرنسي، ولكنه مرتبط به، على حين أن البنك يصرف الدولار بمائة وأربعة وثلاثين كما أخبرني موظف الفندق نفسه الذي نصحني بالصبر إلى غد، والصرف من البنك لا من الناس، وتذكرت بلاد البرازيل - عمرها الله - التي يمكن أن يتناول المرء فيها مثل هذه الشطائر مع الشاي أو عصير البرتقال الطازج بربع هذا الثمن.

وقبل غروب الشمس الذي كان في السابعة إلا ثلثاً امتلأ الميدان المطل على الشاطئ من جهة الميناء بسيارات المطاعم المتنقلة، وكثر إقبال الناس على تناول العشاء فيها لكونها أرخص من المطاعم المعتادة، وقد جهزها أصحابها بالطعام الذي يعملونه لتوه مثل الشواء على الفحم وأنت تشاهده فيعرضون عليك قطعة الشواء وهي نيئة حتى إذا وافقت عليها شووها لك، حتى البطاطس يقلونه وأنت تشاهد، فضلاً عن قدور المرق والشربة، والأرز الأبيض الساذج الذي لا يدخله شيء من البهارات أو الدهون كما هو الشائع في أكثر بلدان جنوب آسيا الشرقي التي ربما كانوا قد عرفوا الأرز من أهلها، لأن هذه الجزر لا تنتج الأرز.

وعلى الشاطئ قوارب كثيرة صغيرة راسية تنتظر المسافرين إلى الجزر الأخرى، أو يشتري راكبوها ما يحتاجون إليه من العاصمة ثم يغادرونها.

وقد هاتفت رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة فأخبروني بما عرفته من قبل، وهو أن اليوم عندهم يوم الإثنين وهو عندنا يوم الأحد، وليس هذا ناشئاً عن غروب الشمس أو شروقها عندنا قبلهم؛ لأن ذلك لا يعني تأخير يوم كامل، وإنما هو ناشئ عن التغير المتعلق بمجاوزة خط الطول الدولي شرقاً، أو خط التاريخ الدولي كما قدمت.

ومن المدة اليسيرة عرفت أن القوم من أهل هذه الجزر، أو على الأدق من لاقيته منهم حتى الآن هم مثل سائر أهل جزر جنوب المحيط الهادئ من أكثر الناس كذباً حتى في الأمور المعتادة التي لا يستفيدون من الكذب فيها، وإنما هي عادة لهم (لكل امرئ من دهره ما تعود) كما قال المتنبي، وربما صح الشطر إذا قلناه: (لكل امرئ من أهله ما تعود).

يوم الإثنين ٢٦ /٣/ ١٤٠٦هـ ٩ /١٢/١٩٨٥م:

جولة في جزيرة بابيتي:

ثمن هذه الجولة (٣٥٠٠) فرنك تاهيتي، وتساوي ستة وعشرين دولاراً أمريكياً، وهي تبدأ من العاشرة ضحى وتنتهي في الرابعة عصراً، ولا تتضمن تقديم أي طعام أو شراب، وإنما يضعونك في مطعم في وقت الغداء تأكل منه بنفقتك إذا أردت.

وفي الساعة العاشرة وصل إلى فندقنا (باسفيك هوتيل) رجل مسن بل محطم، وقال وهو يوجه كلامه إلي لأنني كنت أنتظره وحيداً في مكتب الاستقبال: مرحباً بك، وأنا دليلكم في الجولة، وكنت من آخر من ركب معه إذْ كان رفقاء الجولة كلهم معه.

والغريب أن جميع الجائلين - إن صح التعبير - هم من الشيوخ والعجائز، وأنا أصغرهم سناً مع أنني في الواحدة والستين باصطلاحنا القائم على التقويم القمري، وهي التاسعة والخمسون باصطلاحهم القائم على التقويم الشمسي.

وكلهم أزواج، بمعنى أن كل عجوز هي مع شيخ منهم، وكلهم من البيض، وعددهم جميعاً غيري عشرة، والدليل أوروبي الأصل بمعنى أنه ذو مظهر أوروبي، وإلا ربما لا يكون أوروبياً، وإنما هو من الأوروبيين الذين يعيشون في نيوزلندا أو كندا أو حتى في تاهيتي، فهو يتكلم الإنكليزية جيداً إلى جانب الفرنسية بالطبع التي هي اللغة الرسمية في الجزيرة.

ولم يكن ودياً إلى الدرجة التي يسهل سؤاله عن أصله وفصله، فقد كان يضيق بأسئلة بعض السياح، وبخاصة منهم الفضوليين أمثالي الذين قد يسألون أسئلة خارجة عن موضوع الجولة.

عدد السكان:

أول فائدة استفدناها من هذا الشيخ الفاني قوله والسيارة وهي حافلة صغيرة تتحرك متجهة للخروج من البلدة: إن عدد سكان جزيرة بابيتي هذه يبلغ مائة وعشرين ألفاً، وإن مجموع سكان جزر البولينيز الفرنسية هو مائة وستة وستون ألفاً.

وهذا معناه أن ثلثي سكان الدولة أو الولاية هذه يسكنون في جزيرة العاصمة، وأن الثلث الباقي يعيشون في الجزر الأخرى.

سلكت السيارة شارعاً حديثاً طويلاً مستقيماً في ضاحية وصلناها في لحظة، لأن عرض بلدة بابيتي ضيق جداً، فهي مستطيلة على الشارع الرئيسي المحاذي للبحر.

وفي هذه الضاحية بيوت متفرقة غارقة في الأشجار والحدائق، وهي معتادة المظهر، وليس لها طابع محلي، أو أي مظهر يجعلها تستحق الاهتمام.

وأخذ الدليل يتكلم عن أشياء تافهة مما نمر به كمكتب للعناية بالشؤون الاجتماعية قال إنه بني في عام ١٩٦٦م إلا أن المنطقة جبلية منسقة، فهي ليست على طبيعتها، وإنما نسقت تنسيقاً معتنى به، فصارت جميلة حقاً وناهيك بالذوق الفرنسي في رسم لمسات الجمال.

والسيارات هنا كثيرة بجانب البيوت وفي الطريق، بخلاف الجزر الأخرى في جنوب المحيط الهادئ التي مررت بها قبل تاهيتي.

وصرنا خارج المدينة مباشرة في ريف أخضر ندي قد التفت أشجاره، ونورت أزهاره، تطيف بجانب منه جبال (بابيتي) الخضر، ويطل منه جانب آخر على شاطئ البحر.

والطريق إزفلتي لا بأس بسعته، يرى المرء منه عدداً وفيراً من أشجار النارجيل خصها الدليل بالذكر، مع أنها لا تستحق ذلك لظهرها وكثرتها في المنطقة، ولكن تكلم عليها وعلى الفوائد التي تستفاد منها.

تاها باها:

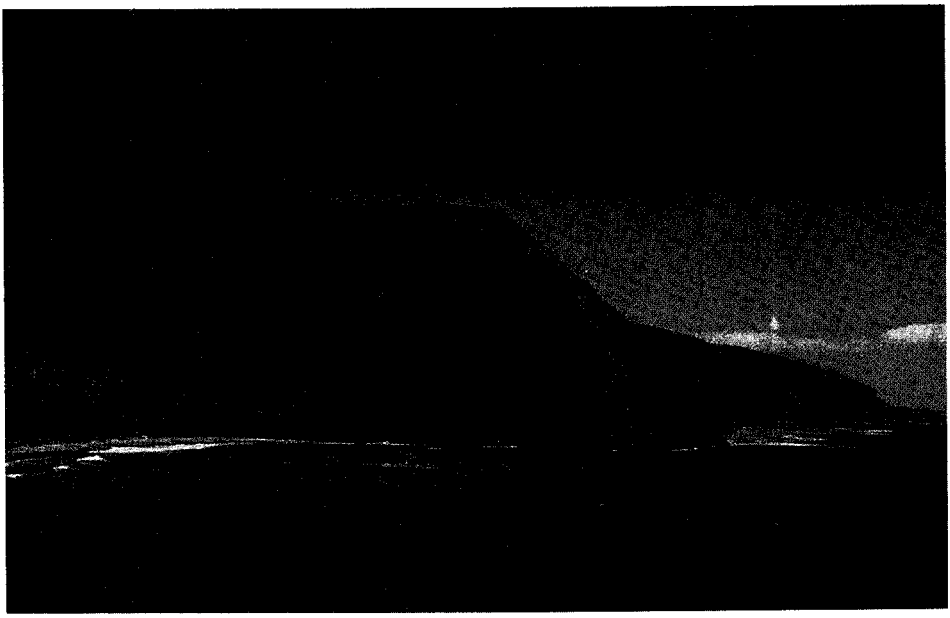
صعدت الحافلة مكاناً مرتفعاً يقع في كتف هضبة خضراء لا تكاد تعرف لون الأرض فيها لأنك لا تراها بسبب شمول العشب والتفافه عليها.

وقال السائق ونحن نصل إليه: هذه هي (تاها باها)، ولم نعجب لغرابة هذا اللفظ لأنه منسجم مع بقية الأسماء التي عرفناها في البلاد مثل (تاهيتي) اسم الجزر كلها، و(بابيتي) اسم العاصمة، وهذه ألفاظ تجزم بأن لها علاقة بالألفاظ الإفريقية، غير أن ذلك لا يمكن أن يجد دليلاً ولو بعيداً يستند إليه بسبب بعد المسافة أولاً ولعدم وجود أي وجه شبه بين هذه الجزر وبين البلادالإفريقية، حتى ألوان الناس وأشكالهم لا تكاد تجد فيها ما يشبه أهل القارة الإفريقية، فهم من الذين يسمون (البولينيز) وهم كما قدمت غلاظ الأجسام، ضخام الأبدان، حمر الألوان، مع ميل إلى السمرة غير الندية، وهي التي تميل إلى الصفرة لا إلى الحمرة.

اللهم إلا إذا أخذنا بالاعتبار حالة جيرانهم الأبعدين في سكن جزر المحيط الهادئ الجنوبي، وهم ممن يسمون (المالينز)، وهم سكان جزر سليمان، وجزر (وانا واتو) التي كانت تمسى قبل الاستقلال (نيو هبريدز) أو الأصلاء من أهالي جزر نيو كلدونيا، فأولئك (المالينيز) هم أشبه خلق الله بأهل إفريقية سواء من حيث الألوان، أو من حيث الصفات، إن لم أقل إن ذلك

أيضاً يصدق حتى على بعض العادات، ولكنهم من هؤلاء القوم (البولينيزيين) بعيد، وبينهم وبينهم لجج من هذا المحيط العتيد، وحتى اللغات فإنها غير متقاربات فضلاً عن اللهجات والكلمات، وصدق الله العظيم الذي قال: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾.

وقفنا في (تاها باها) وقفة قال الدليل الهرم إنها لن تطول أكثر من عشر دقائق، وهي لنا كافية، فاستجلينا أمر فندق فيها عظيم البناء، ظاهر السناء إلا أنه حديث النشأة، غربي الطراز إن لم نقل أوروبي الطراز، ونحن وأمثالنا قد مللنا رؤيته وأمثاله في بلاد أهله وفي بلادنا، ولكنهم حسنوا المكان ما شاء لهم التحسين، وزينوه أعظم تزيين، فهذبوا أعشابه، وزخرفوا أعتابه، وقلموا أشجاره، وأبرزوا أزهاره، بل أنواره حتى غدا تحفة للناظرين، ونزهة للمتنزهين.



الشاطئ الشرقي لجزيرة بابيتي

وهو في مكان جميل يطل على أماكن أجمل ذات مناظر رائعة من

شطآن بحرية خضر إلى سفوح جبال أشد خضرة ونضرة.

وقد استمتعنا بهذه المناظر الرائعة، وأخذ بعض الرفاق من السياح يلتقط الصور للآخرين لا سيما من كان مثلي ليس معه رفيق ولا صديق فضلاً عن أن يكون له في هذه البلاد النائية أنيس أو جليس.

وتطل على هذه الأرض المرتفعة الجميلة القمم الخضر من جبال تاهيتي الأشد خضرة التي خضرتها طبيعية غير وضعية تركوها هكذا غفلاً لا يقطع شجرها ولا يخضد شوكها، وإنما يباح ثمرها من دون أن يكون في ذلك ضررها.

وبعد أن متعنا أبصارنا وأفكارنا بهذه المناظر دخلت إلى الفندق أبحث فيه عن أصيل من هذه الجزر، فلم أجد إلا امرأة رأيتها تنظم زهرات كما يفعل السكان الأصلاء لتجعلها قلائد تزين نحوراً، أو أكاليل تطيف برؤوس الغانيات، وقد مدت رجليها وربما كانت بذلك تفعل مثل فعل والديها، فالتقطت لها صورة هي الوحيدة التي رأيتها تستحق أن تلتقط في هذا الفندق الواسع.

وقد حاولوا أن يضعوا فيه شيئاً ذا أصالة وطنية، فأقاموا أمامه تمثالاً ضخماً من الخشب على غرار ما كان يضعه أهل البلاد الأصلاء، فهو رث الطلعة، ويرمز إلى أشياء موغلة في القدم، وقد غطوه بمظلة ضخمة كأنها القبة الهائلة، وهي من الخشب أيضاً، وتعادل في ارتفاعها ارتفاع مبنى مؤلف من ثلاث طبقات.

نورفينوس:

سارت الحافلة بعد أن انقضت الدقائق العشر، فانحدرت من هذا المكان المرتفع الأخضر مع طريق واسع أسمر، واخترقت ريفاً قد مسه التحسين الذي نعتبره مما يشين ولا يزين؛ لأننا نفضل أن نرى الأرض العذراء

والطبيعة الخضراء.

ومن سخف الدليل أنه أخذ يشير إلى أشجار قليلة من أشجار الموز، وجعل يثرثر حولها، وهو يعرفنا بها وكأننا كما قال الشاعر:

ويوهمنا أنه شاعر كأنا قدمنا من البادية

وحتى لو كنا قدمنا من البادية فإننا لا بد قد مررنا قبل أن نصل إلى (تاهيتي) إن لم نقل قبل أن نتيه في (تاهيتي) ببلاد تنبت الموز بوفرة أكثر من وفرته في هذه البلاد، ثم وصلنا إلى مكان متسع على شاطئ البحر الذي هو أيضاً ضفة لنهر، وهو نهر يأتي من الجبال ويصب في البحر في هذا المكان حيث تضيع مياهه الرقراقة الصافية في مياه البحر الملحة كما يضيع المعروف عند اللئام.

وقال الدليل وهو يشير إلى سائق الحافلة يأمره بالوقوف ويلتفت إلينا معشر السياح: إننا سنقف هنا لمدة ربع ساعة، إن هذا موضع مهم اسمه: فينوس بوينت لايت هاوس، وأشار إلى برج مربع الشكل مرتفع نوعاً ما وقال: هذا البرج قديم؛ بل تاريخي لأنه مبني في عام ١٨٦٧م.

والقدم والوصف بالتاريخي نسبي، فهو عندهم ما يرقى عهده إلى أكثر من مائة سنة، وذلك لحداثة هذه الجزر بالمدنية، بل بوصول الإنسان المتمدين إليها، والبرج يشبه الصومعات أو المنارات الأندلسية، وهو مؤلف من أجزاء، أوسعها أسفلها، ثم الذي يليه أضيق منه حتى القمة.

وقد شاهدنا هنا عدا البرج من الأبنية نماذج كبيرة لبيوت من الخشب والقش، من التي كانت سائدة في هذه الجزر قبل وصول الأوروبيين إليها.

وهي مفيدة بلا شك لإعطاء صورة عما كانت عليه البيوت في الماضي، لأن المساكن الحديثة الموجودة في هذه الجزيرة هي عصرية أو متأثرة

بالعصرية، حتى ولو كانت من المواد نفسها التي كانت تقام منها البيوت كالأخشاب.

هكذا يخلدون سابقيهم:

أهم ما في هذا المكان عدا جمال الموقع واقتران النهر بالبحر فيه، والمحافظة على أشجار معمرة ضخمة في نواحيه، أقاموا أنصاباً من جذوع الأشجار الضخمة التي هذبوها ونقشوا عليها أسماء الرواد الأوائل من الأوروبيين الذين وصلوا إلى هذه البلاد، وتاريخ وصولهم.

فكان أولهم - كما كتبوه -: والس الإنكليزي، وهو أول رجل أبيض وصل إليها، وذلك عام ١٧٦٧م، وكان ثانيهم دقنفيل، وهو فرنسي وصل في عام ١٧٦٨م، أي بعد وصول الإنكليزي بسنة واحدة.

ثم كان الثالث هو المكتشف المشهور، الربان القائد (كوك)، الذي اكتشف أستراليا، وقد أرسى في هذه الجزيرة بعد ذلك بسنة أيضاً أي في عام ١٧٦٩م.

وقد أقاموا هذا النصب الخشبي الذي ليس فيه تماثيل على ضفتي النهر والبحر عند التقائهما، وكتبوا أن هذه النقطة كانت هي مكان إرساء هؤلاء المكتشفين.

والتنويه برجال الدين:

وغير بعيد من هذا النصب أقاموا نصباً أعظم وأفخم من الحجارة والملاط، وكتبوا عليه كتابة هي أكثر عناية واهتماماً، وقد أخذ الدليل يوضح ما يدل عليه هذا النصب للسياح مع أن ذلك مكتوب عليه، ولكن هذا من باب التنويه به، ولفت الأنظار إليه.

إلا وهو وصول أول دعاة التنصير، أو أول المبشرين - على حد تعبيرهم -

إلى هذه الجزر (التاهيتية).

وقد حددوا تاريخ وصوله حتى باليوم، فذكروا إن ذلك كان في الخامس من شهر مارس عام ١٧٩٧م، أي أنه كان بعد وصول أول رجل أبيض إلى هذه الجزر بعشرين سنة فقط.

ولو نظرنا إلى ما حققه دعاة النصرانية بعد وصولهم حتى الآن، ونظرنا إلى الأمور بالمنظار الظاهري، فإننا نجد أنهم نجحوا نجاحاً كاملاً إذ لم يبق من السكان من هو على دينه الوثني الذي كان سائداً قبل وصول الأوروبيين، إذ كانت للسكان الأصلاء ديانات وثنية متعددة.

ودعاة الإسلام؟

ونسأل هنا عن دعاة الإسلام، ونحن إذ نفعل ذلك لا نسأل عما إذا كانت توجد أنصاب تحمل أسماءهم وتواريخ وصولهم، فذلك ليس بذي بشأن، والاقتصار عليه ليس من هدي ديننا، وإن كان تاريخ انتشار الإسلام وأخبار الدعاة إليه يستحق التدوين، والتسجيل أمر مطلوب، وإنما يجب أن يكون هدف الداعية إلى الله هو هداية الناس إلى دين الله، وإخراجهم من ظلمات الكفر والوثنية إلى نور التوحيد، واحتساب الأجر في ذلك من الله سبحانه وتعالى.

فإننا نسأل: أين دعاة الإسلام؟

وهذا السؤال هو من باب تساؤل العارف أو تجاهل العارف كما كان أهل البلاغة يسمون أمثاله، ونحن نعرف أنهم غير موجودين هنا، ولكننا نسأل: لماذا كان الأمر كذلك؟ ولمَ لمْ يوجدوا؟ ونحن ديننا الإسلامي هو دين الدعوة والانطلاق، وهو الدين العالمي الذي لا يفضل جنساً من الناس أو لوناً

منهم على جنس أو لون آخر: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير .﴾

لا شك في أن السبب في عدم وجود الدعاة إلى الإسلام هنا هو التقصير الذي سببه الجهل أولاً، وعدم الاستطاعة التي تنتج عن الجهل أو التجاهل أحياناً، فعدم الاستطاعة من الدعاة قد يكون مبعثها ذلك أيضاً.

إذْ يمكن لمن هو على بصيرة من الأمر، ولكنه ليس على استطاعة للعمل في الدعوة إلى الله أن يسعى في تحسين حاله، ويستعين بمن يستطيع من إخوانه حتى يحصل على نوع من الاستطاعة يؤهله للقيام ببعض الواجب، ولكنهم أيضاً لا يعملون، وبعضهم لا يعلمون أنهم قد يعملون ما يستطيعون.

والآن؟

والآن وقد علمنا بعض العلم وأصبحت لدينا الاستطاعة التي تمكننا من العمل فماذا عملنا؟

والضمير هنا لنا نحن المسلمين جميعاً على وجه الأرض، وليس خاصاً بنا نحن السعوديين؟

والجواب: أن المملكة العربية السعودية، ممثلة في حكومتها وعلى رأسها ملوكها ابتداء من الملك فيصل - رحمه الله -، وحتى الملك فهد - وفقه الله - وممثلة أيضاً في مؤسساتها التي تعمل في الاتصال بالمسلمين، وعلى رأسها رابطة العالم الإسلامي تكاد تكون هي البلد الوحيد الذي يعمل على مساعدة المسلمين في البلدان النائية على القيام بواجب الدعوة إلى الله، وببذل الجهد في ذلك، وهي بذلك تقوم بالواجب عليها تجاه الدعوة إلى الله أو ببعض الواجب لذلك.

أما بقية البلدان الإسلامية، فهي بين مقصر في الأمر، أو تارك له

كلياً، وبين معوّق للعمل الإسلامي، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولكن الآية الكريمة تقول: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾.

وقد أصبحنا نرى نفراً من إخواننا المسلمين في بلاد الأقليات المسلمة يقوم بما لم تقم به حكومات متقاعسة عن الدعوة إلى الله، ويبذل في ذلك النفس والنفيس مريداً به وجه الله وحده، غير مبتغ على ذلك جزاء ولا شكوراً، كما حدث من أحد الإخوة الدعاة من مسلمي (جزر فيجي) حينما ذهب إلى جزيرة تونغا ودعا أحد دعاة النصرانية من أهل البلاد الأصلاء إلى الإسلام، فأسلم الرجل التونغاوي وحسن إسلامه، ودعا قومه إلى الإسلام، فأسلم على يده نفر منهم حتى بلغ عدد المسلمين في تونغا أكثر من مائة قبل أن تنقضي سنتان على إسلام الرجل الأول، ولم يكن يوجد قبل ذلك في البلاد أي مسلم من أهلها الأصلاء.

نعود إلى ذكر المكان المحتفى به من جزيرة بابيتي فنقول:

إن الدليل قادنا إلى عدة أماكن في نواحيه المتفرقة مظهرها مظهر الأكواخ، وهي بالفعل مقامة من الأخشاب ومسقفة من ظاهرها بالقش، ولكنها من الداخل جيدة، وقد تعمدوا بناءها كذلك حتى تعطي صورة قريبة من الواقع لماضي هذه البلاد.

وبعض هذه الأكواخ هي حوانيت تباع فيها التذكارات السياحية التي تكون في العادة من مصنوعات البلاد مما عليه طابع أصيل فيها، غير أن الأمر هنا لم يكن كذلك فأغلب ما تبيعه هذه الحوانيت هو من أصداف البحر، ومناديل الحرير التذكارية على غرار المناديل الحريرية التي تباع في الأماكن الأثرية المهمة في فرنسا مثل قصر فرساي.

وذلك إلى جانب سلال وحقائب من الخوص الذي هو هنا أكثره من خوص النارجيل الشجرة الاستوائية الأكثر نفعاً.

وعلى ذكر النارجيل أقول: إن هذا المكان المتسع مظلل بأشجار نضرة من النارجيل وأشجار أخرى من أشجار الظل، ومغروس بالنبات المزهر في عدة أماكن، ولكن الذي استرعى انتباهي أكثر من غيره أنهم قد غرسوا عدة شجرات من الأثل العربي الصحراوي الأصيل بهدبه وجذوعه وبغناء فروعه عندما تمسها الرياح كما عرفناها وكما عرفتها في طفولتي في بلادنا في القصيم.

الغريب في الأمر أن هذا الأثل، وهو شجر صحراوي، رغم كثرة الأمطار، ورطوبة الجو، وتشبع الأرض بالمياه فإنه هو أثلنا لم يزايله لونه الأشهب، إن لم نقل الأغبر، ولم تزد أهدابه التي هي أوراقه تبسطا أو اتساعاً، بل إنه يكاد يكون في الأماكن الرملية القريبة الماء من سطح الأرض في بلادنا أنضر عوداً، وأحسن حالاً منه هنا، فكأنه الغريب الذي لا يزيده الإكرام إلا حنيناً إلى وطنه، وإن كان مغبر الأفق.

إلا أنهم هنا لا يقطعونه، لأنهم ليسوا بحاجة إلى أخشابه لوجود أخشاب أكثر منه استقامة، وأشجارها أسرع نمواً منه، فبدت جذوعه فيها بعض المغايرة لجذوع الأثل عندنا الذي يقطع كلما صار خشباً ويكرر عليه ذلك.

طريق الشاطئ:

سارت الحافلة مع طريق جيدة إزفلتية تسير محاذية لشاطئ البحر، وبعض الطريق قد شق في الجبل شقاً حيث يصل البحر إلى الجبل.

ومرة أخرى لفت نظري أشجار الأثل التي غرس بعضها في هذا الطريق الجميل الذي تكاد فيه مياه البحر الضحل تعانق الجبال الخضر أيضاً.

ولضحالة مياه البحر القريبة من الشاطئ يرى المرء أمواج المحيط العظيم

تتكسر على صخور بعيدة لم تبرز من الماء، ولكنها وهي تحته تؤلف حاجزاً قوياً دون أن تصل الأمواج القوية إلى الشاطئ؛ لذلك ترى تلك الأمواج على البعد وكأنها الأردية البيض حينما تتكسر على تلك الصخور الواقعة تحت سطح الماء.

ومر الطريق بنهر من أنهار الجزيرة الصغيرة، وهو صغير لا تكاد سعة مجراه تتعدى سعة مجرى نهر بردى في دمشق، غير أنه مفعم بالمياه.

واستمر الطريق المعهود بجانب البحر، وأكثره في أحضان الجبال، وقال الدليل: إننا سوف ندور حول الجزيرة فنعود إلى المدينة من الغرب التي انطلقنا منها جهة الشرق.

وعندما رأيت النارجيل بجانب الأثل في بعض الأماكن ذكرت نخلتنا المباركة، نخلة التمر عندما تكون في بلادنا بجانب الأثل.

إلا أن الفرق الواضح أنها هناك لا بد أن يرى المرء خلالها أرضنا الصحراوية المتسعة، وهنا يرى الأرض الخضراء الضيقة.

والغريب أن الطيور والحيوان هنا قليل جداً، والقياس أن تكون كثيرة، أما الحيوان الإنسي فللاستثمار، وأما الوحشي فللمحافظة على البيئة كما يقولون، ولكن أكثر ما يرى هنا هو عكس ذلك، ألا وهي السيارات التي تمثل بالنسبة إليّ منظراً مملولاً إن لم أقل ممجوجاً، فقد شبعنا من رؤيتها في بلادنا، فكيف بها في هذه البلاد النائية التي كنت توقعت أن أرى فيها من الطبيعة العذراء ما لم أره في البلدان الأخرى.

الشاطئ الجميل:

هذا وشاطئ الجزيرة يتعرج ويؤلف أحياناً أهلة، أو ما يشبه الأهلة في

شكله، وأحياناً يؤلف نصف هلال أو زاوية من مربع لم يكتمل، وأحياناً يكون بروزه على هيئة رأس صغير من الأرض الخضراء داخل في مياه البحر الزمردية الضحلة، وقد افتقدت الزهور الكثيرة التي تكون موجودة في العادة في الجزر المطيرة، وبخاصة الجزر التي قدمت إلى (تاهيتي) منها مثل جزيرة نونغا وساموا و (كوك أيلندز): جزائر كوك.

لقد استغربت ذلك لما هو معروف عن الفرنسيين من محبة للجمال، وإبراز له، غير أنه ربما كان الاختلاط بالآخرين، أو البعد عن البلد الأصلي قد تسبب في فتورهم في هذا المجال.

ومع ارتفاع النهار صار الجو أكثر حرارة إلا أن الهواء إذا هبَّ لا يزال مقبولاً، ولذلك خلع الدليل الهرم قبعة عريضة على رأسه كانت تخفي بعض صلعته، وكان يتكلم كثيراً من مكبر للصوت من دون أن يلتفت إلينا ليرى أثر كلامه علينا، وكان يسرع في كلامه غير أن من يريد أن يتابعه بالاستماع يحتاج إلى أن يستعيد منه بعض ما يقوله، أو يستفصل عن بعض ما أجمله.

ولاحظت أنه هنا مثل كثير من الناس في جسده آثار حبوب متفرقة صغيرة تترك آثاراً بيضاً على الجسد يشبه البرص غير الناصع البياض، ولا أدري سبب ذلك، وقد رأيته على أجساد الكثيرين منهم من رجال ونساء؛ لأن ما يبدو من أجسامهم ربما يكون أكثر مما يخفى بسبب قصر الثياب، وحرارة الجو، وتعود ذلك لعدم مجيء الشتاء أو البرد إليهم على مدى الدهر.

ورأينا جزيرة صغيرة خضراء في البحر بدت كأنها السفينة المقبلة، وألفت أشجار النارجيل النحيلة عليها ما يشبه صواري السفينة الكبيرة.

باها إينا:

وهذا موضع آخر لم يبعد في تسميته عن بقية الأماكن قدم لنا على

الطريق قبل أن نصله بنهر صغير يأتي من الجبال العالية، ويصب في هذا المحيط العظيم.

و(باها إينا) هذا هو شاطئ جميل صالح للسباحة قد أقاموا عليه أنزالاً متعددة لمن يحب الخلوة، والبعد عن ضوضاء المدينة، ويريد أن يمضي وقتاً في الاسترخاء والتكاسل.

وفي هذا الساحل أكبر نهر في المدينة يكون في قدر نهر بردى في دمشق مرتين، وعليه أكبر جسر في الجزيرة.

وأكثر ما في هذا الشاطئ من الأشجار ظهوراً هي أشجار النارجيل العتيدة، وتبين أنها أشجار أصيلة هنا، ولكن القوم في بعض الأماكن يقطعونها ويغرسون غيرها مما هو أكثر فائدة لهم منها.

الريف التاهيتي:

تركنا شاطئ (باها إينا) وما فيه من حركة نسبية موغلين في ريف يكاد يخلو من العمارة، ولكنه لم يخل من الأنهار الصغيرة التي تذهب كلها إلى وجهة واحدة ألا وهي البحر المحيط، فكأنها ترد الدين الذي له على هذه الجزيرة، أو كأنها تحن إلى مصدرها الأصيل من هذا المحيط العظيم.

فمررنا بنهرين آخرين ولكنهما صغيران.

ومع قلة الحياة في هذه المنطقة، فقد مررنا بقبور نوه بها الدليل باهتمام، واشرأبت أعناق السياح لرؤيتها ولم لا يكون الأمر كذلك وهي كما قال الدليل لبعض الأوروبيين الأوائل الذين استوطنوا الجزيرة، فالدليل والسياح كلهم - غيري - هم من ذوي الأصول الأوروبية.

وكان الدليل قد ذكر قبل قليل أن مكاناً مررنا به لا يميزه عن غيره

شيء في الوقت الحاضر كان مسرحاً لمعركة نشبت بين الأوروبيين الأوائل وبين أهالي البلاد الأصلاء، وقال في التعبير عن ذلك: إن الأوروبيين الأوائل حاربوا هنا.

وواصلت الحافلة السير في ريف ندي كثيف الحشائش والأعشاب يكاد يكون خالياً من الحقول، ربما لضيق الأرض، أو لسبب آخر، وحتى الأشجار الكبيرة فإنها ليست كثيفة بل ليست كثيرة.

وأصبحنا لا نعدم أن نرى بيتاً منفرداً من الخشب المطلي بطلاء يقربه - في المنظر - من منظر البيوت الإسمنتية.

ومررنا بتجمع لبيوت قليلة أسماه الدليل قرية لقلة السكان هنا، ولكننا رأينا أعلى ما فيها من الأبنية كنيسة كبيرة قال: إنها للكاثوليكيين.

وفي هذه القرية كانت ريح عبقة كالياسمين تقابل من يقترب منها لم يوضح الدليل أمرها.

ثم وصلنا إلى ميناء صغير في وسط مرفأ طبيعي كالهلال.

ومن الأشياء اللافتة للنظر التي رأيناها هنا أن الطريق اخترق مياهاً ضحلة فدفنوا ما تحته، ولكنه أبقي على مساحات من المياه الضحلة ربما كان بعضها مما يأتي من الجبال من المياه العذبة، وقد استفادوا من ذلك حين جعلوه أحواضاً استغلوها في تربية الأنواع الجيدة من الأسماك، مع أنهم في جزيرة وسط محيط ضخم شواطئه حافلة بالأسماك الكثيرة، ولكنها العناية باستغلال الموارد المتاحة، ومحاولة تكثير نوع معين من الأسماك الجيدة.

حوانيت النارجيل:

رأيت في كثير من بلدان العالم المطيرة، ومنها (سيلان) ومدغشقر والمنطقة الشمالية من البرازيل حوانيت (دكاكين) صغيرة جل ما فيها من

النارجيل، منه الأخضر الذي يشرب منه ماء كالماء الزلال، ومنه الأصفر الذي هو أغلظ من ذلك، وينتفع منه بما في باطنه من شحم لم يغلظ بعد، ومنه الناضج الذي يدخل في أنواع معينة من الأكلات.

وكل الحوانيت تلك يجمع بينها أنها من الأخشاب وسقوفها من القش مسنمة أو على هيئة القبعة.

منطقة قوقوين.

وصلنا إلى منطقة من الغابات المحمية التي تركت عذراء لا يجوز أن تمس بقطع أو تحسين، وبعدها مباشرة وصلنا إلى فندق في منطقة جميلة جداً تقع في طرف مرفأ طبيعي على هيئة الهلال.

والفندق غارق في الجنان، وقفت الحافلة عنده تحت ظلال شجرة واحدة كبيرة وسعها مع سيارات غيرها عديدة.

وقال السائق: سوف نمضي هنا ساعة كاملة نتناول فيها طعام الغداء في هذا المطعم مطعم (رويال قوقوين)، وكانت الساعة هي الثانية عشرة والثلث، وكان سبقنا إليه جموع من السياح بسياراتهم السياحية حتى كاد المطعم يضيق بهم.

وقال الدليل: إن قيمة الغداء بدون أي شراب هي ألف وستمائة وخمسون فرنكاً، وهي كما ترون قليلة، فالفندق قد خفض لنا من القيمة، هكذا قال مع أن ذلك يعني ثلاثة عشر دولاراً أمريكية، فمن أراد أن يأكل فليأكل وجبة كاملة، ومن أراد أن يطلب ما شاء من القائمة فليطلب، لكن ليعلم أنه ليس فيه تخفيض، ثم أخذ عمال المطعم يصفون السياح صفوفاً لكثرتهم.

ورأيت طعامهم معلباً مصبراً، وفيه من اللحم ما لا أعرفه فعافته نفسي،

وبخاصة أنه ليس فيه شيء طبيعي طازج، فاكتفيت بكأس من الشاي أخذوا قيمته مائتي فرنك، أي دولار ونصف.

وقد قضيت فترة من الساعة أتجول في هذا المكان الجميل، وألتقط من الصور فيه ما راقني، وكان من ذلك شجرة باسقة من الأثل خلفها شجرة نارجيل، وهما تبدوان كالأثلة التي بجانبها نخلة عربية لا سيما أن الأثلة تحتها سيارة تستظل بظلها كما نفعل في بلادنا في فصل الصيف.

ومن أغرب ما في حديقة هذا الفندق زهور متدلية على هيئة عناقيد، وهي صفر الرؤوس قانية الحمرة.

وتطل الربى الخضر الواقفة على الشاطئ الجميل في منظر يأخذ باللب.

متحف قاو قونغ:

أمضينا ساعة وربعاً في المطعم، وغادرناه في الواحدة والنصف، ولم نكد نفارقه حتى وقعنا في حديقة نباتية عظيمة قد استنبتوا فيها من الأزهار والأشجار ما يعجب ويطرب، وقصدهم من ذلك المتعة بمرآها، والعلم بما خفي من أمور استنباتها وطبائعها ثانياً، ومن ذلك أحواض مياه متعددة منخفضة قد غرسوا فيها الزهور التي لا تعيش إلا في الماء، وتزهو فوق سطحه والمسماة (ووترليلي).

وقد طلبت من الدليل أن يوقف السيارة لكي نتفرج برؤية هذه الحديقة، فأخبرني أن الجولة تتضمن وقفة بعد عدة دقائق.

وكانت الوقفة في متحف اسمه (متحف قاو قونغ) على اسم المنطقة، قال الدليل: إنها ستمتد نصف ساعة، وقد استكثرناها من أول الأمر لأن المتحف صغير يضم لوحات وصوراً عن محتويات المدينة والمنطقة، كما يضم كتباً عن بعض الأشياء المهمة في البلاد مثل الرسم عند أهل تاهيتي.

وأكثر اللوحات التي فيه هي حديثة.

ومع ذلك فإن المتحف يتألف من أجنحة متعددة قد تعبوا في إعدادها وتجهيزها مما يذكر بأن الفرنسيين أنفقوا كثيراً من الجهد والمال في إصلاح أمور هذه الجزيرة، وأنهم في زمن الاستعمار لم يكونوا ينظرون إلى أمرها على أن وجودهم فيها عابر، وقد أجروا بعد ذلك تصويتاً حراً بأن تكون الجزر أرضاً فرنسية.

وذلك إلى جانب كونهم بطبيعتهم أقرب إلى الاعتدال في النظر إلى الأقوام الأخرى من غير البيض، أو قل إنهم أقل تعصباً للعنصر من الإنكليز، لذلك تراهم يختلطون بالسكان بالمصاهرة والمعاشرة حتى نشأ جيل جديد من السكان له مصاهرة أو مقاربة مع الفرنسيين، أو على الأقل له عواطف ساعدت التربية الفرنسية على ثباتها بل نموها.

ومن ألطف ما في المتحف برج فوق غرفة ذات شرفات تشبه العربية، وهي بلا شك ترمز إلى مكان تاريخي هام في أوروبا التقطت لها صورة على البعد.

أما الحديقة فإن حرارة الشمس واتساع الحديقة وتباعد أركانها قد منعني ذلك كله من التجول فيها كلها، وإنما اكتفيت بما قرب من المتحف فأعجبني وأطربني، ومن ذلك أبنية على هيئة الأكواخ القديمة من الأخشاب والقش، ولكنها واسعة ومتقنة.

حول جزيرة بابيتي:

استأنفت الحافلة السير في الثانية ظهراً، وقال الدليل يذكر السياح: إننا الآن نسير حول جزيرة بابيتي عاصمة تاهيتي، ونحن الآن في جنوب الجزيرة، وسوف يبلغ طول الطريق الذي نكمله الآن مائة وخمسة عشر

كيلومتراً.

ومررنا بمزرعة صغيرة لتربية الأبقار نوه بها لقلة ذلك كما مررنا بعدد من الأنهار الصغيرة لم ير الدليل أنها تستحق الذكر لكثرة الأنهار في الجزيرة ووفرة المياه والأمطار.

واستمرت أيضاً مناظر الطريق بدون اختلاف كبير، فهو الطريق الجيد المحاذي للبحر الذي يحاذي الجبال العالية الخضر.

ونوه الدليل بقرية قال إنها كبيرة فقال: إن عدد سكانها يبلغ ثلاثة آلاف نسمة مع أن ما رأيناه من بيوتها لا يدل على ذلك، وإنما يدل على أنهم أقل من ذلك بكثير، إلا إذا كنا لم نرها كلها من الطريق.

كما تكررت رؤية الكنائس وبعضها حولها قبور مشرفة، قال إنها قبور المبشرين والوجهاء من وجهاء القوم، ويريد بهم الأوروبيين.

ورأينا وادياً منخفضاً بين جبلين واقفين تجللهما الخضرة، فكان المنظر جميلاً غير أننا لم نقف لمشاهدته.

ولا يعدم المرء هنا أن يشاهد منازل خشبية مرفوعة عن وجه الأرض بأخشاب وبلبن من لبن الإسمنت من أجل وقايتها من رطوبة الأرض.

وهذه من منازل المواطنين الأصلاء أو الذين تجري دماء الأصلاء من البولينيز في عروقهم، لذلك تراهم جالسين على الأرض بقرب هذه المنازل.

مغارة ماراراً:

هذه المغارة من ألطف المناظر التي رأيناها، فهي في أسفل الجبل، ويفصل بينها وبين الطريق فاصل، وقد امتلأت بالمياه لأن قاعها في مستوى وجه الأرض وأخفض بما يقرب من نصف متر.

وهي أشبه ما تكون بحوض السباحة تحت الجبل، ورأيت طائفة من

المواطنين يسبحون فيها لكون مائها بارداً مثلما كان بنو قومنا يسبحون في (هيت)، وهي مغارة في باطن الأرض يبعد قاعها عن الأرض بحوالي ٢٥متراً في أسفل جبل متطامن، ولكن ينزل إليها المرء برجله بسهولة، وتقع ما بين الرياض والخرج.

وأعجب ما في هذه المغارة أن سطحها الذي هو في عرض الجبل ملىء بالنبات الصغير، وقد نبث فيها متدلياً كما تتدلى الخيوط.

وهناك نبات أكبر منه وأثقل، بل أشجار صغيرة متشبثة بما استطاعت الوصول إليه من التربة القليلة بين الصخور، ولكنها واقفة إلى الأعلى بخلاف الأعشاب والنبات الخفيف الذي تتدلى أوراقه وأغصانه إلى أسفل.

وذلك كله بسبب خصوبة المنطقة وكثرة الأمطار فيها، وإلا فإن إرواء هذه الأعشاب بالماء صعب، غير أنها تتلقى ذلك من المطر، ومما يتحلب من صخور الجبل فوقها.

واسم المكان (قراتي دي مارا رآ) أي: (مغارة مارا رآ)، وقد لفت نظري القرب الشديد ما بين الكلمة العربية (مغارة) وهذه الكلمة (مارارآ) التي لم يفسر الدليل معناها، ولم يخبرني عندما سألته عما إذا كانت من الفرنسية أم من إحدى اللغات الوطنية، إلا أن كلمة (قراتي) و (دي) من الفرنسية بالتأكيد.

وهذه المغارة بما نما عليها وحولها من الحشائش والأعشاب والأشجار من أغرب ما رأيته من المغارات في العالم.

ثم استمر السير على الطريق المعتاد، وإن تكن هذه النقطة منه جديدة، إذ هو الطريق بجانب البحر على يمينه الجبال الخضر التي تجلل الغابات الحافلة بالنارجيل أكتافه، وتغطي أشجار أخرى من أشجار الغابات أعاليه.

العودة إلى بابيتي:

أصبحنا في الساحل الغربي للجزيرة بعد أن كنا عند ابتداء الجولة في الساحل الشرقي، ثم أصبح الطريق مزدوجاً عندما صرنا نقترب من بلدة (بابيتي) التي هي العاصمة، وقد غرسوا في الجزيرة التي تفصل بين اتجاهي الطريق أشجاراً صغيرة من أشجار النارجيل مثلما نغرس نحن الآن النخيل في جزر الطرق.

وأخذت الحافلة تنزل الركاب في أماكنهم من الفنادق والأنزال، فكان أولهم نزولاً الساكنين في (نوفوتيل) وهو فندق كبير هنا إلا أن الغريب أن بعضهم نزلوا في فندق اسمه الصحراء أو (صحاري) كما نقلها الأوروبيون في بعض استعمالاتهم عن العربية، وسألتهم عن العلاقة ما بين الصحراء وبين هذه الجزر الخضر البعيدة عن الصحاري وأهلها؟ فأجابوا إن هناك تلة ليس فوقها من النبات ما فوق غيرها من تلال الجزيرة تسمى صحاري، فسموا هذا الفندق القريب منها باسمها.

وسألت الدليل وقد خف حمله بعد أن نزل معظمهم عن الوجبة الرئيسية هنا للأهالي؟

فأجاب: إنها الآن الوجبة المعتادة للأوروبيين وأمثالهم، هذا في المدينة، وأما في خارجها فإن القوم كانوا يأكلون (اليام) والماينوكا، وهو عروق أشجار تشبه البطاطس إلا أنها غليظة ومستطيلة على غير استواء، فقلت: إن هذا معروف لنا، وهو غذاء الكثير من الشعوب التي تقطن تحت خط الاستواء وما قرب منه، وبخاصة في أفريقيا.

قال: ولكن يمكن القول بأن الغذاء في الوقت الحاضر أكثره مستورد من الخارج كالقمح والأرز وقد أصبحا شائعين.

ولا شك في أن المساعدات بل قل النفقات التي تنفقها فرنسا على هذه

الجزر تسهم في توفير العملة الأجنبية الدولية القابلة للتحويل لذلك يسهل الاستيراد.

والدين:

ولمناسبة ما كان قد تكلم به من التعريف ببعض الكنائس التي كان يقول: للكاثوليكيين أو البروتستانت سألته عن عدد الكنائس في جزيرة بابيتي؟ فأجاب أنها كثيرة لا أحصيها عدا كما قال: إنها تتبع لعدد من المذاهب الدينية، وكلها مذاهب مسيحية.

وسألته عن الدين الإسلامي وعما إذا كان يوجد مسلمون في الجزيرة؟ فأجاب: أنه لا يعلم بوجود نشاط إسلامي من هيئات أو جماعات، ولكن كان يوجد في الجزيرة بعض المسلمين الذين كانوا يأتون مع الجيش الفرنسي في الماضي، ولا يعرف الآن أحداً منهم في الجزيرة، وكنت سألت غيره قبل ذلك عن وجود المسلمين فكلهم أجاب بجواب مقارب لما ذكره، وهو أنه كان يوجد أفراد من المسلمين أكثرهم من العاملين في الجيش الفرنسي، وهم من عرب الشمالي الإفريقي ومن أهل إفريقية الغربية، ولكنهم الآن لا يوجدون، وإذا كان أحد منهم لا يزال يعيش في الجزيرة هذه أو في الجزر الأخرى فإنه لا يوجد له نشاط إسلامي.

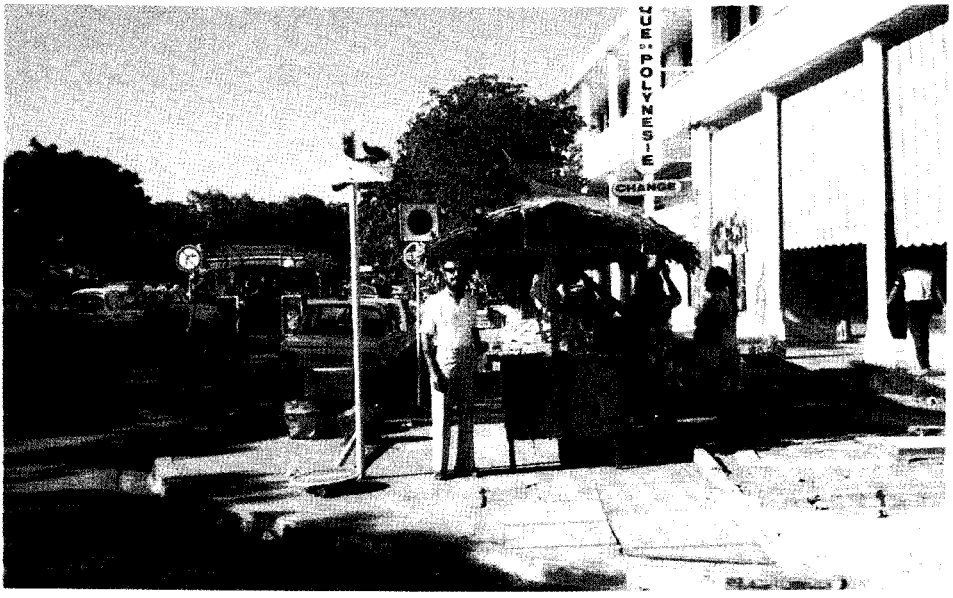
وجولة الأصيل:

عدنا إلى بابيتي في الرابعة والنصف، وأسرعت إلى مكاتب الطيران للحجز إلى سيدني، ولكنني مررت بسوق شعبي للفواكه والخضرات، فشربت ماء ثمرة واحدة خضراء من جوز الهند الذي هو ثمار النارجيل لأنني كنت عطشان منذ الجولة، وكان ثمنها مائتي فرنك أي دولار ونصف على

حين أنها في بانكوك مثلاً بخمسة باتات أي خُمس دولار الذي هو ٢٠٪ من الدولار، وفي البرازيل بألفي كروزيرو وتساوي خُمس دولار أيضاً.

وأسرعت بعد ذلك إلى مكتب طيران نيوزلندا مع رغبتي في الاطلاع على سوق الخضرات، فوصلته في الخامسة إلا خمس دقائق، وإذا بهم أنهوا عملهم، وقالت الموظفة: موعدك غداً، وأخبرتني أن جميع مكاتب الطيران بل والشركات والحوانيت الكبيرة تغلق أبوابها في هذا الموعد.

فانثنيت آسفاً إلى سوق الخضرات أيضاً فرأيت معظم ما فيه مستورداً، وفيه أشياء من الإنتاج المحلي.



المؤلف عند حانوت خشبي في رصيف الشارع في بابيتي

ولكنها غالية جداً، فمثلاً اشتريت واحدة من ثمار الباباي صغيرة بمائة وثمانية فرنكاً، وهي بربع هذا السعر أو خمسه تباع في الجزر الأخرى التي مررت بها في هذه السفرة، ومن أغلى ما رأيته ثلاثة أصابع من الخيار قيمتها مائتا فرنك، أي أكثر قليلاً من دولار ونصف، وهي في بلادنا تساوي عشر

هذا المبلغ مع خضرة بلادهم وقترة بلادنا، وكذلك الخس غالٍ جداً بضعف قيمته أربع مرات عندنا في المتوسط وحتى الموز الذي يكثر في بلادهم فهو غالٍ جداً، ولقد رأيت عنقوداً اشتريت مثله في (رارو تونغا) عاصمة جزر كوك التي قدمت منها بثلث دولار يبيعونه هنا بدولار ونصف.

وفي الشارع الهام:

ومن السوق الذي رثيت للمشترين منه خرجت إلى الشارع العام المهم، وهو الشارع المحاذي للبحر، فوجدته قد امتلأ بالسيارات لأن هذا هو وقت انتهاء الناس من أعمالهم، فرأيت السيارات تقف عند إشارات المرور الضوئية الكثيرة، وقد اتصلت صفوفها من إشارة إلى الإشارة الأخرى، فكأنما أنا في بلدة قديمة من إحدى القارات الهرمة كأوروبا أو آسيا.

والأسوأ من ذلك أن رائحة الوقود المحترق من السيارات تلوث الجو في هذه الجزيرة التي يفترض فيها أن الناس يلتمسون الهواء النقي فيها.

تأملت ما رأيته بالأمس وهو (بسطات) التي هي بضائع صغيرة أشبه ما تكون بحوانيت الرصيف مقامة على رصيف الشارع العام الذي تفتح عليه المحلات التجارية الكبيرة.

وقد أقاموها هنا صفاً مستطيلاً مع استطالة الرصيف وعلى هيئة صناديق خشبية مغلقة مرتفعة عن الأرض بمقدار المتر، وفوق كل واحد منها مظلة من القش على الطريقة القديمة التي كانوا يسقفون بها أكواخهم، وقد التقطت لها هذه الصورة.

كانت الشمس حارة حتى في هذا الأصيل، ولكن الظل كان محتملاً.

عادات مكروهة :

جلست أحتسي فنجاناً من الشاي في أحد مقاهي الرصيف، فرأيت من حالة النساء الجالسات في المقهاة ما كنت رأيته من مثيلات لهن في هذه الجزيرة وفي عدة جزر أخرى من جزر المحيط الهادئ والجنوبي مثل جزر سليمان، من أن الواحدة منهن تنظف أنفها بأصبعها، ولا ترى في ذلك بأساً، وغالباً ما تفعل الواحدة ذلك حتى باليد اليمنى.

وهذه من العادات السيئة المشتركة بين نساء أهل هذه الجزر، وليس معنى هذا أنهن كلهن يفعلن ذلك، فأنا لم أرهن كلهن بطبيعة الحال، ولكنني رأيت أعداداً منهن يفعلنه، والشيء السيئ الآخر المشترك ما بين سكان هذه الجزر الهادئة الجنوبية هو كثرة الكذب، فهم يكذبون حتى فيما لا يعود عليهم بالمصلحة.

وقد عجبت لأهل جزر (تاهيتي) هذه التي تولى الفرنسيون تربية الناشئين من أهلها منذ عشرات السنين، ولكنهم لم يغيروا عادة الكذب فيهم.

وأهل (تاهيتي) هم أقل سكان جزر المحيط الهادئ الجنوبي إكراماً للغريب، أو على الأدق هم أقلهم ترحيباً به.

ولا أدري السبب، بل إنهم أسوأ في مقابلة الغريب من أهالي بقية الجزر.

والسمرة هي الغالبة وأن لم تكن شديدة في وجوه بعضهم.

وأما الجمال الظاهري فإنه قليل أيضاً إلا أنهم جميعاً يتميزون بغلظ الأجسام، ومعنى ذلك أن يكون الجسم كبيراً لا بسبب سمن صاحبه، وإنما لطبيعة في جسمه جعلته كبيراً، على أن السمن مع الغلظ موجود بكثرة، وبخاصة في أجسام المتوسطات في العمر من النساء وفي الشيخات.

أما الشابات فإن بعضهن قد تبدو على البعد على شيء من الجمال مبعثه العناية بالشعور، وطول فيها، وأخريات تكون صدورهن بارزة بشكل ظاهر،

وبعضهن ترى جسمها يكون منظره منظر الجسم الريان، ولكن المرء إذا دقق النظر فيه وجد فيه أشياء لا نعتبرها جميلة في نظرنا نحن القادمين من المنطقة العربية، مثل عدم تناسب شكل الأنف مع باقي الوجه، ومثل البروز في البطن الذي يكاد يكون الظاهرة المشتركة بين أهالي البلاد من رجال ونساء ما عدا بعض صغار السن منهم.

ويلاحظ المرء عدة ظواهر من النساء تستحق الملاحظة، أولها عدم الحياء من الرجال الأجانب، وهذا ظاهر السبب، وهو التربية الفرنسية إلا أن العادات والآداب الفرنسية في السلوك الظاهر لا توجد عندهم كما توجد عند الأصيلات من الفرنسيات.

وثانيها: كثرة النساء اللاتي يقدن السيارات ولقد وقفت في الشارع لمدة ٥ دقائق فكان عدد السيارات الصغيرة التي تقودها النساء أكثر من عدد السيارات التي يقودها الرجال، وقال لي موظف في فندقنا إنه يرجع ذلك إلى كثرة العاملات من النساء، وضرب مثلاً على ذلك بموظفتين في الفندق قال وهو يشير إليهما: انظرهما: إن كل واحدة منهما معها سيارتها التي تقودها بنفسها.

وثالثها: انتشار عادة التدخين بينهن.

ولقد ترددت وأكثرت التردد في المنطقة، ولذلك عندما حل المساء لم أجد فيها مكاناً أرتاح للجلوس فيه لأنها كلها صارت مألوفة لدي، بل مللت من الجلوس فيها.

وبخاصة أن مقهاة الفندق التي هي حانة ومقهاة تفتح إلى الشارع العام تتحول في الليل مثل غيرها من المقاهي والمشارب التي تتحول في الليل إلى محلات للصخب والرقص، ففيها أماكن خلفية يدخل فيها الناس يرقصون ويتعارفون.

والغريب في أمرها أن الدخول إليها مجاني، حتى إن كثيراً من الناس يدخلون ويظلون فيها بعض الوقت بين وقوف وجلوس، ويشاهدون الراقصين ثم ينصرفون من دون أن يشربوا شراباً، أو ينفقوا فيها أي شيء.

ولقد رأيت هذه المحلات تغص في الليل - وهذا كان في الليلة البارحة - بطوائف من الجنود والمجندين الشبان الذين لا نرى أكثرهم في النهار، ويرجع ذلك إلى وجود قاعدة عسكرية مهمة فرنسية في هذه الجزيرة ذات الموقع الهام.

ورأيت العاملات في هذه المقاهي والمشارب يمازحن الشاربين والجالسين بالقول وبالفعل مما ينافي الوقار، وينافي التفرغ التام للعمل في ساعات العمل ومن ذلك أنهن يجلسن إلى الموائد، يتقبلن ما يقدمه الجالسون لهن من شراب، أو نحوه، وغالباً ما يطلبن ذلك.

وفي هذه الليلة تعشيت في أحد مطاعم العربات، أو لنقل مطاعم السيارات؛ لأنه كله يكون على ظهر سيارة شحن متوسطة الحجم، وذلك من شواء من لحم البقر الطازج رأيته قبل الشي ومعه قليل من البطاطس الذي يقلونه لتوه، ومن السلطة الخضراء التي عمادها الخس، ودفعت ثمنه ألفاً ومائتين وخمسين فرنكاً، أي تسعة دولارات أمريكية ونصفاً، أو أثنين وثلاثين ريالاً سعودياً، وهذا الرخص النسبي فيه لأن السيارة واقفة مثل عدد من سيارات المطاعم في ساحة عامة قرب البحر.

وعدت إلى الفندق ونمت مبكراً.

يوم الثلاثاء ٢٧/ ٣/ ١٤٠٦هـ ١٠/ ١٢/ ١٩٨٥م.

بكرت إلى مكتب الشركة النيوزيلندية للطيران، فأخبرتني موظفة فيها ذات مظهر صيني أنه ليس لديهم رحلات إلى أوكلاند في نيوزلندا إلا بعد ثلاثة أيام، فذهبت إلى مكتب شركة الخطوط الأسترالية الخارجية المسماة (كوانتس)، وحجزت في أقرب رحلة مغادرة إلى سيدني مع عدم التوقف فيها إلا لعدة ساعات أواصل السفر بعد ذلك معها إلى بانكوك.

وذلك قبل فجر الخميس الذي هو بعد غد، أو لنقل إنها الليلة القابلة لأن غداً هو الأربعاء يجب علي أن أغادر فندقي بعد نصف الليل بساعتين.

وقد لفتت الموظفة التي صارت تجاملني مجاملة خاصة عندما عرفت أنني سعودي نظري فقالت: إنك في الواقع ستسافر يوم الخميس، ولكنه سيصبح لك يوم الجمعة بمجرد أن تقطع بعض المسافة بين بابيتي وسيدني، كما أن السفر المبكر يتيح لك أن تقطع المسافة بين بابيتي وسيدني على طولها مع البقاء في مطار سيدني عدة ساعات، ومع الطيران إلى بانكوك لمدة طويلة كل ذلك في اليوم نفسه الذي ستجده يوم الجمعة عندما تصل إلى سيدني، وإن كان هو يوم الخميس هنا.

وعندما انتهيت من أمر الحجز إلى سيدني ذهبت إلى مكتب للجولات السياحية داخل جزر تاهيتي، وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة، وكنت أريد سفراً يبدأ الآن حتى أعود غداً، فلم تجد موظفة في المكتب بعد محاولة أي سفر بالطائرة إلا إلى جزيرة اسمها (بوري بوري) تبعد عن بابيتي ٢٠٥ كيلات، وتبلغ الأجرة عشرة آلاف فرنك، أي نحو ٧٦ دولاراً أمريكياً للذهاب ومثلها للإياب مع أجرة الفندق والطعام، وذلك كله من أجل البقاء هناك بقية هذا اليوم؛ لأن الطائرة ستعود غداً ضحى ولا توجد رحلة في المساء فتركتها.

وذكرت الموظفة أن لديها رحلة مناسبة إلى جزيرة (موريا) بالطائرة غداً، وكنت أرى بعض جبال الجزيرة الشاهقة فقلت: إنني أستطيع أن أسافر بالباخرة إليها لأنني أرى من شرفة الغرفة في الفندق السفن وهي تسافر إليها تنقل الركاب.

وطلبت أن أعرف شيئاً عما في جزيرة (موريا) هذه فلم يوجد لديها إلا أسماء فنادق، كما بحثت عن شيء من التعريف بأمرها في فندقنا فلم أجد

أيضاً.



من داخل جزيرة موريا (تصوير المؤلف)

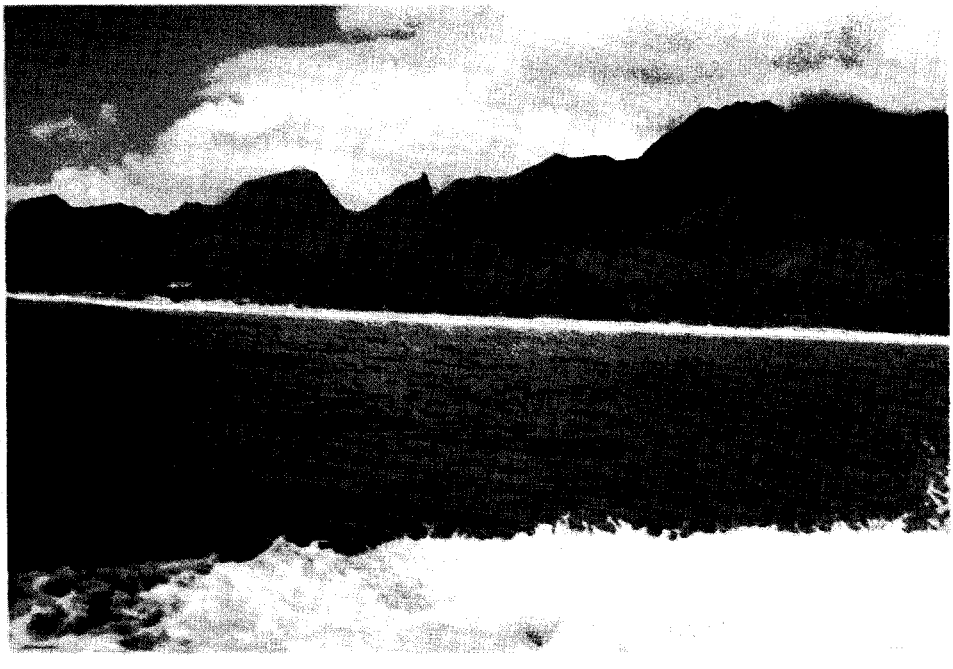
وقضيت بقية هذا اليوم بعد أن اطمأننت على الحجز في الكتابة في الفندق، وفي مقهاة ملحقة به حيث أستطيع أن أشرب الشاي أو القهوة وأكتب، وإذا ما أردت الاستراحة من الكتابة كان ذلك على منظر رواد المقهى في هذه الجزيرة النائية، بل هي الجزيرة الأكثر بعداً عن بلادنا.

وكان بعض الفضوليين من المشاة يقفون عندي، ويحملقون فيما أكتبه قائلين: « أربي » أي عربي، وكان عددهم قليلاً، لكن الفضول الكثير كان من عاملات المقهاة وبعض الجالسين فيها.

يوم الأربعاء: ٢٨/ ٣/ ١٤٠٦هـ ١١/ ١٢/ ١٩٨٥م

جزيرة موريا:

ترتفع جزيرة موريا عن البحر كأنها فك سمكة القرش، وهي أقل تمدناً وحركة للمرور من تاهيتي، فليس فيها مواقف سيارات، ولا الكهرباء ولا عدادات لوقوف السيارات، فبدلاً من هذا كله اختارت جزيرة موريا الحفاظ على مبانيها التي شيدت إبان الاستعمار، وهي منازل تقليدية جميلة مسقوفة بسعف أشجار النارجيل، وقد حلت « تيارى تاهيتي » أي الزهرة المعطرة التي أصبحت رمز تصدير البن والفانيليا كمصدر اقتصادي رئيسي كما تم إنشاء عدد من الفنادق الجميلة للسياح، هذا ويبلغ عدد سكان جزيرة موريا سبعة آلاف ٧٠٠٠ نسمة.



شاطئ جزيرة موريا

وأول ما لفت نظري إليها اسمها، فهي جزيرة واسمها (موريا)، ونحن لدينا جزر كوريا موريا العربية العمانية، فهل لها علاقة بتلك؟

كل الذي عرفته أنه لا توجد علاقة بين الاسمين.

كنت سألت موظفة الجولات السياحية في المكتب أمس عن الجولة داخل الجزيرة، وعما إذا كان يوجد لدى الشركة التي تسير السفينة التي سنبحر بها دليل أو مرشد للسياح، فأجابت بالإيجاب، وعندما سألت موظفة في مكتب قطع التذاكر في الميناء عن ذلك أجابت: نعم.

وقطعت تذكرة إلى جزيرة (موريا) بألف فرنك للذهاب ومثلها للإياب حرصاً مني على العودة؛ لأن سفري من تاهيتي سيكون بعد منتصف هذه الليلة.

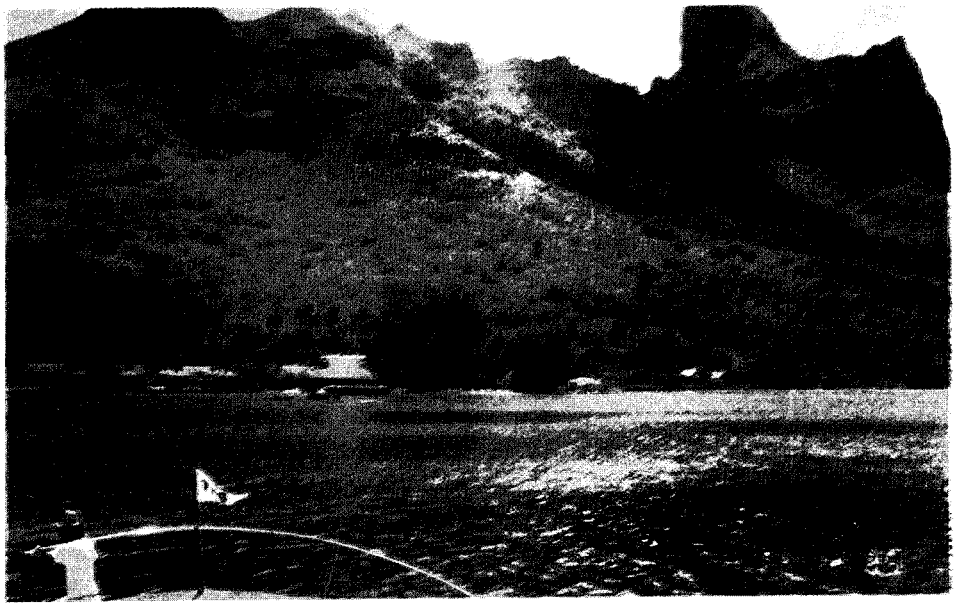
وفي التاسعة والربع صباحاً كان القارب يتحرك مبحراً إلى (موريا)، وهي في اللفظ على وزان سوريا أو كوريا بدون تشديد الياء.

والقارب اسمه: كي كي ثلاثة، فذكرت أن النزل - الموتيل - الذي كنت فيه في جزيرة (رارو تونغا) عاصمة جزر كوك قبل أيام كان اسمه (كي كي موتيل)، ولم أجد منهم من يفسر لي معنى (كي كي) هذه.

والقارب الذي يصح أن نسميه (يختاً)، وإن يكن اللفظ غير عربي، فإن الناس اصطلحوا على تسمية القوارب الفخمة المجهزة بوسائل الراحة باليخوت، فهو مكيف ومؤثث أثاثاً نظيفاً، وفيه قسم للمدخنين، وقسم لغير المدخنين، وحتى زجاج النوافذ فيه غامق حتى يكون أكثر راحة للبصر، وكان الجو صاحياً بل شامساً.

لم يكن القارب مليئاً بالركاب، وهو يتسع لنحو مائة وعشرين راكباً، وكان الركاب الذين معنا جلهم من السياح الأجانب.

ومن المقرر أن نعود إلى (بابيتي) في الخامسة عصراً.



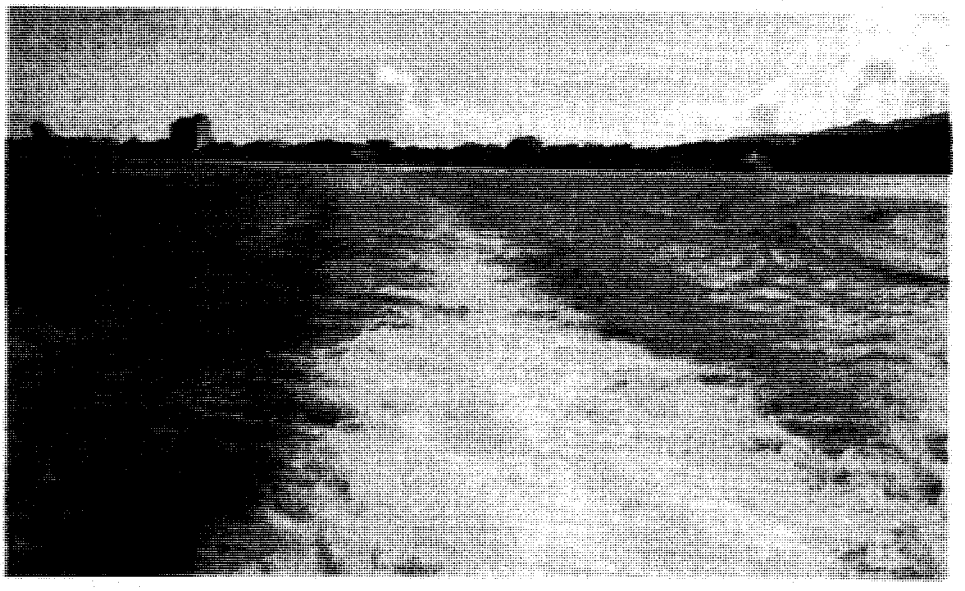
قبيل الوصول إلى جزيرة موريا

وفي القارب مضيفتان من أهل البلاد الأصلاء، ولكنهما من جزيرة أخرى بعيدة، ومن جنس يختلف كثيراً عن الجنس الأكثر في هذه البلاد، رأيت عدداً من أفراده من قبل وهم يميلون للسمرة الشديدة وصغر الأنف نوعاً ما، وإن كان لا يصل إلى أنوف التايلنديين - مثلاً - في القصر، وقد وضعت كل واحدة منهما تاجاً من الزهور، أو لنقل: إكليلاً من الزهور على رأسها، كما وضعت زهرة واحدة عند إذنها.

وهذه هي العادة في التزين عندهن وعند أكثر أهل جزر المحيط الهادئ الجنوبي.

وفيه مقصف لبيع المشروبات الحارة والباردة والشطائر.

ابتعد القارب مخلفاً وراءه نهراً أبيض جميلاً من الماء كأنما هو مولع بالقارب فهو يلاحقه.



النهر المتخلف في البحر من سير العبارة في تاهيتي

وبدت جزيرة بابيتي مبتعدة

وأخذت جزيرة بابيتي تبتعد غير مأسوف عليها.

وسألت المضيفة عن المسافة فأجابت: إنها ساعة واحدة، وكان القارب سريعاً فسألتها عن المسافة بالكيلو أو الميل فلم أجدها تعرف ذلك.

واستمر سير القارب سريعاً، ولكنه رخاء لا اضطراب فيه، إلى أن بدت جبال جزيرة موريا أكثر خضرة من بابيتي، وفيها هضاب عالية، وكلما اقترب القارب منها ازدادت اتساعاً.

وبعد قليل قربنا من ساحل الجزيرة، ولكنه غير الذي فيه الميناء، هذا ساحل رملي جميل خالٍ من الإفساد المدني، إن صح التعبير فليست فيه بيوت حديثة ولا عمارة ظاهرة إلا أكواخ من القش قليلة، وهي على هيئة الأكواخ التقليدية القديمة، وتوشحه أشجار النارجيل النضر، والشاطئ متسع قليلاً ما بين البحر والجبال هنا.



المؤلف على رصيف القوارب في موريا

وسار القارب محاذياً للساحل ولكنه ليس ملاصقاً له؛ لأن المياه القريبة من الشاطئ هي ضحلة في هذه المنطقة لا تتحمل ثقله، فتجلت طبيعة الجزيرة هنا أكثرها كالعذراء، وغاباتها غُفل لم يفسدها ما أسموه الإصلاح، وحتى البيوت الحديثة التي فيها وهي قليلة فإنها من الخشب، وسقوف بعضها من الصفيح الأبيض وبعضها من القش.

وما زال القارب يساير الساحل أو (يساحل) كما هو اللفظ الفصيح لمن يسير محاذياً لساحل البحر.

واقترب من مرساه فاتضحت جبال الجزيرة من القرب ذات رؤوس محددة تتفرق عنها قطع من السحاب المنخفض، ولولا ذلك مع الخضرة القاتمة لأشبهت الرؤوس المحددة في بعض الجبال الصحراوية في بلادنا.

في جزيرة موريا:

أرسى القارب في ميناء كل ما فيه من الأخشاب حتى المكاتب على قلة ما فيه من المنازل، وكان ذلك بعد سير استمر ساعة وخمس دقائق.

واستقبلته مضيفات أرضيات من (التاهيتيات) الأصيلات، إن لم نقل من (التائهات) الأصيلات، فأهل هذه الجزر كلهم قد يصدق عليهم أنهم من التائهين على اعتبار أن جزيرتهم تائهة في مياه المحيط، وأنهم تائهون في الضلال عن الهدى.

وعلى رؤوسهن أكاليل الزهور المعتادة، وقد لفت الواحدة منهن جسمها بفوطة تشمل من أعلى الصدر إلى الركبة، ولا يرى المرء من اللباس غيرها وهي قطعة واحدة.



المؤلف بين البيوت التقليدية في موريا

لم أجد مكتباً للشركة ليرتب لي أمر الجولة في داخل الجزيرة كما كنت أعتقد مما سمعته في بابيتي، ووجدنا حافلتين كبيرتين مقاعدهما من

الخشب، أشارت المضيفات الأرضيات إلى السياح أن يركبوا فيهما، وسألت عن الجولة فلم يلقوا للإجابة بالاً، ورأيت السياح يركبون كلهم فظننت أنهم ذاهبون إلى محطة للشركة في داخل الجزيرة، فركبت معهم بعد أن دفعت مائتي فرنك مثل غيري، أجرة ركوب الحافلة.

سارت الحافلة مع طريق إزفلتي ضيق لم يبعد عن البحر في أول السير، وبدت مياه البحر ذات ألوان ثلاثة هي اللازوردي والأخضر ثم الأزرق البعيد، وزاد منظر الأمواج المتكسرة على صخور بعيدة عن الشاطئ وهي ترسل رذاذها كالغيم الأبيض الذي يقبل الشاطئ فيزيد المنظر جمالاً على جمال.

ثم أوغل الطريق في الجزيرة التي يصحّ أن نسميها بالغابة، ودل على أنها غابات أكثرها لم يمس وجود النارجيل الكثيف فيها، ولكنه ليس وحده السائد، بل هناك أشجار من أشجار الغابات الاستوائية ملتفة متنوعة.



طريق في الغابات في جزيرة موريا

ومررنا بحانوت من الأخشاب المسقفة بالقش، وهو يبيع شراب النارجيل

رغم قلة المارة.

في كيا أورا:

قد يكون ذكر اسم هذا المكان لا يعني القارئ الكريم بشيء، ولكنني ذكرته لأنه هو الذي أنهى جهلي بأمور الجزيرة لعدم مبالاة موظفي الجولات السياحية في بابيتي بأمر السياح، وذلك أن السياح أخذوا ينزلون وأكثرهم جماعات أو أزواج، وقد شعرت بأنني الوحيد الذي ليس معه رفيق.

حتى إذا لم يبق في الحافلة إلا أنا وامرأتان إحداهما شابة والأخرى نَصَف، أي كهلة، وهمّتا بالنزول، ونزلت معهما في مكان لا أعرفه إلا أن السائق أشار إلى مكان في الغابة بجانب الطريق وهو يقول شيئاً بالفرنسية منه (كيا أورا) ويكرر ذلك.

فنزلت ألا أنني لا أدري أين أذهب، والسائق لا يعرف الإنكليزية، وتبعت المرأتين فكان مفتاح الحديث معهما أنني رأيت في أنف الكهلة زينة صغيرة من الذهب في خرم صغير، فسألتها قائلاً: أنت أوروبية، والأوروبيات لا يضعن مثل هذه الزينة في الأنف. فابتسمت وقالت: أنا فرنسية سائحة، وقد كنت في (نيبال)، فأعجبتني زينة النساء فيها التي يضعنها في الأنف، ففعلت مثلهن.

وسألتها ونحن موغلون في الغابة عن المكان الذي نذهب إليه، فذكرت أنه فندق ستقيم فيه مع صاحبتها، وسألتني عما إذا كنت قد حجزت فيه، فأجبت بالنفي، ولم أشأ أن أقول: إنني لم أسمع به من قبل.

حتى وصلنا بناء كبيراً من الخشب ذا سقف من القش الذي تحته أعواد مضفورة بشكل جميل، وقد كتب على ركن فيه لفظ (استقبال) بالفرنسية، فسألت موظفة فيه من أهل البلاد عما إذا كان يوجد مكتب يمكن أن أحجز منه لجولة سياحية في الجزيرة، فأجابت: نعم، إنه عند هذه

السيدة، وأشارت إلى امرأة فرنسية نقية حتى في لونها.

وقالت الفرنسية: إنني آسفة لكونك تأخرت قليلاً عن موعد قيام الجولة الرئيسية في هذا اليوم، ولكن لدينا جولة أخرى أقصر منها تبدأ في الواحدة والنصف ظهراً وتنتهي في الرابعة.

فذكرت لها أنه من الضروري لي أن أعود في الوقت المحدد، لأنني سأغادر (بابيتي) هذه الليلة إلى سيدني، فقالت: إنني سوف أخبر الدليلة السياحية أن تذهب بك رأساً بعد انتهاء الجولة إلى الميناء حتى تتمكن من إدراك القارب الذي حجزت عليه، لأن الرحلة التي حجزت عليها هي آخر رحلة تغادر هذه الجزيرة هذا اليوم.



المؤلف في داخل جزيرة موريا

فسألتها عما أفعله في الوقت المتبقي قبل قيام الجولة فقالت: يمكنك أن تتجول في هذا المكان الجميل، وأن تغوص في قاع المياه غير العميقة، وسوف

تجد أن المعدات اللازمة لذلك من غطاء العينين وكمامة الأنف هناك بالمجان.

كما تستطيع أن تذهب في رحلة مع دليل ماهر للغوص تحت الماء، والليث هناك مديدة حيث يزودونك بالأدوات اللازمة، ومنها أنبوبة الأوكسجين، وذلك لقاء أجر محدد، وإذا احتجت إلى شيء من الموظفين فاذكر لهم اسمي، مع أنك لن تحتاج إلى ذلك.

تجميل الجميل:

الذوق الفرنسي في تجميل الأشياء مذكور بل مشهور، ولكن الأغرب من ذلك هو تجميل الجميل، فقد اختاروا لفندق (كيا أورا) هذا مكاناً جميلاً حقاً، فهو في حضن واسع من تلال خضر واقعة على شاطئ بحري رملي، ولكنها لا تضايقه أو تحاصره، وهي في نفسها خضرة نضرة ذات أشجار وارفة الظلال، ورواب متعددة ذات سفوح في غاية الجمال.

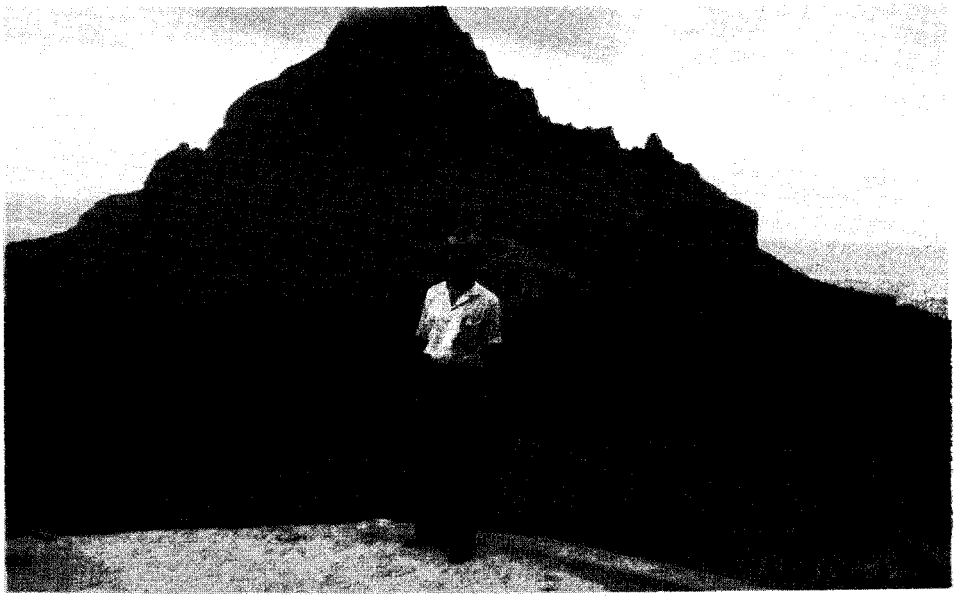
وقد جمله هؤلاء الفرنسيون فجعلوا غرفه متفرقة، كل غرفة مع منافعها على هيئة كوخ من أكواخ أهل البلاد الأصلاء، لكن يتوفر فيه كل ما يحتاجه النزيل لراحته، وقد مدوا في شاطئ البحر ميناءً فوق الماء مرفوعاً على دعائم إسمنتية وخشبية، وجعلوا في هذا القسم المدفون كل المرافق العامة التي يحتاجها الفندق الكبير من مطاعم ومشارب ومنافع أخرى، إلى جانب ميناء صغير داخل في البحر لقوارب النزهة في البحر.

وأما الشاطئ الرملي، فإنه واقع تحت ظلال النارجيل تجاورها من جهة البر أشجار المانقو التي طعمنا من ثمرها الناضج الذي جني لتوه من شجره، ثم جمّلوا المنطقة بأشجار من أشجار الزهور التي كان أهل البلاد يتجملون بها على هيئة أكاليل وتيجان، أو على شكل قلائد.

وقد أعدوا للنزلاء سرراً منحنية بحيث تكون فيها وأنت بين القاعد والمستلقي، وإذا شئت أن تستلقي بالفعل فإنك واجد مقاعد أخرى على هيئة

السرر لهذا الغرض.

فيستلقي النزيل، أو يتمشى على شاطئ البحر، وإن شاء أن يستلقي على الرمال مباشرة فإنّ بإمكانه ذلك، كما رأيت بعضهم يفعل مع وجود المقاعد من دون أن يخشى تلويثاً لأنه ليس عليه إلا ثياب الاستحمام التي يستطيع أن يغسلها مع باق جسمه مما علق به من الرمل في مياه البحر.



المؤلف بالقرب من قمة جبلية عالية في جزيرة موريا

وعلى ذكر الملابس والثياب، فقد رأيت فيه شيئاً مخجلاً، وهو أن الأوروبيات، والمقصود بذلك مَنْ لونهن أبيض كبياض الأوروبيات لأنهن من أصل أوروبي، وإن كن الآن من أهل أستراليا أو نيوزلندا مثلاً، يمشين في هذا الشاطئ وهن عاريات الصدور، وأكثر من ذلك عجباً من قلة الحياء أنني رأيت امرأة تفعل ذلك ومعها زوجها وطفل لهما عمره حوالي سبع سنين.

ورأيت عدة نساء من أهل البلاد الأصلاء، وقد تخففن من اللباس إلا أن

ذلك لم يصل بهن إلى تعرية صدورهن، فذكرت بذلك نكتة رأيتها في بعض المطبوعات في فيجي، وهي تعليق على صورة تمثل أوروبياً معه امرأته وعليها لباس طويل يتعدى الكعبين وهي تقول لنساء من أهل البلاد كن في ذلك الوقت لا يضعن فوق النصف الأعلى من أجسامهن لباساً تقول لهن: هذا عيب، غطن هذا.

وبجانبها صورة مكتوب تحتها: كان هذا في الزمن القديم، والآن وتمثل الصورة رجلاً أوروبياً معه امرأته ليس عليها إلا لباس البحر وامرأة وطنية من الأصلاء قد لبست لباساً ساتراً وهي تقول لها: هذا عيب غطي هذا.

فعرفت أن الأمر في الحقيقة قد انعكس.

ومن الجميل في هذا المكان أيضاً الهدوء المطلق، وليس كما عليه الحال في جزيرة بابيتي، فقلت في نفسي: هذا الذي قد يعطي معنى لبعض ما قرأناه عن (تاهيتي) بأنها جزر سياحية لولا أن الأصيل من اللباس والمظاهر القديمة لم يبق منه شيء على الوطنيين التاهيتيين الأصلاء.

ولباس التاهيتيات هنا وفي أكثر أنحاء الجزيرة هو فوطة من قطعة واحدة تلف ما فوق الصدر، دون النحر وتنزل إلى الركبة أو أسفل منها قليلاً.

ومن الأشياء المخجلة هنا أنني وقفت على شابين فرنسيين معهما فتاتان من الوطنيات لا شك في أنَ الجامع بين الجميع هو الصداقة، أو قل العلاقة في الصداقة، وكنت أمشي على الشاطئ بملابسي الكاملة، وأنا الوحيد الذي هو كذلك، فسألوني من أي البلاد فأخبرتهم أنني من البلدان العربية، فأومؤوا برؤوسهم علامة الإشارة إلى أنهم عرفوني، ولا شك أنهم بذلك برهنوا على أنهم لم يعرفوا سعة البلدان العربية.

وتحدثت إليهم عن جمال المكان، وكانت المصورة بيدي فعرض علي أحدهم أن يلتقط لي صورة فشكرته، وأسرعت إحدى الفتاتين وليس عليها إلا فوطتها المسترخية، وهي تحضنني تريد أن تظهر معي في الصورة، فأسرعت

أنبهه أن يتريث في الالتقاط وأنا أبتعد عنها وهي تلاحقني تظن أنني أبحث عن مكان أكثر مناسبة للصورة، فأخبرتها أنني لا أرغب في أن تقترب مني وأن تظهر في الصورة معي فخجلتْ، غير أن أحدهم تكلم معها بالفرنسية وكان هو الوحيد من بينهم الذي يتكلم الإنكليزية فرضيت وقال لي: لقد قلت لها: إنه متزوج ويخشى أن ترى زوجته امرأة معه في الصورة، ثم قال لي: أليس الامر كذلك؟

فقلت: إنني كما قلت متزوج، ولا أريد أن تراني زوجتي بالقرب من امرأة أخرى في الصورة، ولكن ليس هذا هو الأهم عندي، وإنما الأهم أنني مسلم، ولا يجيز لي ديني أن احتضن امرأة أجنبية عني ولو لم أكن متزوجا!

ميناء الغوص:

وليس الغوص بحثاً عن اللؤلؤ كما قد يفهم منه بعض بني قومنا الذي أدركوا ما أدركناه من أهمية الغوص في البحر بحثاً عن اللؤلؤ، ولكن طلب المتعة والفائدة العلمية.

فقد وجدت في رأس الميناء المقام على دعائم داخلة في البحر غرفة ومرسى لقوارب النزهة، ووجدت عنده رجلين أحدهما فرنسي والآخر تاهيتي من الأصلاء الذي شابت دماؤهم شائبة فرنسية بعيدة.

وكان الفتى التاهيتي يأكل ثماراً طرية من العمبة أو الأنبة كما كان أسلافنا القدماء يسمونها، وهو الذي تسميه العامة عندنا الآن بالمانقو، فأطعمني منها كما أطعم الفرنسي، وجلسنا نتحدث، ورآني الفرنسي أكتب شيئاً فسألته أتعرف هذه اللغة؟ فأجاب، نعم، إنها العربية، إن والدي ولد في تونس، وأنا ولدت هناك، ولكن أهلي تركوني فيها وأنا صغير غير أنني أعرف كلمات عربية قليلة مثل (مرحبا) و (شوية).

وأما التاهيتي فقد انبهر من رؤية الحروف العربية لأنه لم يرها في حياته، بل إنه عجب من وجود عربي هنا، وذكر أنه لم يرَ عربياً من قبل.

وقال: إن مهمته أن يقود القارب يرشد الغاطسين الذين يريدون الغوص في مياه أعمق من هذا، ويريهم كيف يستعملون الآلات الضرورية للبث في قاع البحر مدة أطول.



طريق ترابي ١ اخل جزيرة موريا

وقال: أما من يريد أن يغوص هنا تحت هذا الماء، فإن هذه الآلات وأشار إليه هي جاهزة، وسألني عما إذا كنت أرغب في ذلك فذكرت له أنه ليست معي ملابس للبحر.

وقد تعجبا من آلة التصوير التي أحملها وبخاصة كونها تضبط كل ما يتعلق بالصورة آلياً.

وقد أراد الفرنسي التقاط صورة لي في هذا المرسى الاصطناعي الصغير، فأسرع التاهيتي واسمه (أندي) بجسمه القوي يقترب فكانت هذه

الصورة.

غلطة بصواب:

لقد كانت غلطتي التي أضاعت علي بعض الوقت كما قال المثل القديم: غلطة بصواب، إذ استمتعت بالتجول في هذا المكان الجميل، واستفدت فائدة ضخمة من ذلك، ومن دون أن أقصده.

وأما الجولة الطويلة فإن الموظفة الفرنسية قالت: إن الجزيرة متشابهة، ولن يفوتك منها شيء ذو أهمية، لأن أهم ما فيها هو صعود الجبل، وهو ضمن جولتك التي ستقوم بها.

ثم ذهبت إلى المقهاة فشربت شاياً مع شطائر من الخبز والجبن الأصفر الجيد، واسترحت فترة.

ومن اللطيف في هذا الفندق الذي تصح تسميته بالمنتجع أنه وهو مبني من الخشب ومسقف بالقش الذي وضعوا تحته خشباً جيداً قد زينوه بأشياء طبيعية، من ذلك أن الثريات التي في الأماكن المهمة منه كالمطعم والمقصف والمقهاة هي من الأصداف البحرية اللامعة نسقوها وعلقوها فأصبحت جميلة من دون أن تكون دخيلة على المكان، حتى الأغاني والموسيقى قد أداروها وطنية لا تكاد تبعد عن الأغاني الأفريقية المتطورة.

وأسفت في نفسي لكوني أمضيت النصف الأخير من يوم أمس في بابيتي الكئيبة، ولم أمضه هنا.

ومن كذب أهل بابيتي أنني سألت عدداً منهم عما تحويه جزيرة (موريا) هذه فكلهم قال: إنها مختلطة ما بين الفرنسيين والوطنيين مثلها في ذلك مثل بابيتي، ننوتوا علي فرصة الإقامة فيها يوماً كاملاً.

جولة في جزيرة موريا:

يبلغ عدد السكان في جزيرة موريا ثمانية آلاف نسمة، وطول محيط دائرتها ستون كيلومتراً.

عدت إلى الموظفة الفرنسية في الواحدة والربع فوجدت وقتاً لتحدثني عن نفسها بأنها فرنسية لم يمضِ على وصولها إلى (تاهيتي) إلا شهر واحد، فعرفت من ذلك السر في حسن معاملتها، وفي صفاء لونها بالنسبة إلى الفرنسيين المقيمين هنا.

وفي الواحدة والثلث كانت حافلة سياحية صغيرة تنطلق من كيا أورا وعليها أربعة ركاب غيري مع الدليلة، وهي تاهيتية، بل (مورية) أصيلة غليظة البدن، ترتدي فوطة طويلة واحدة قد سترت بها من أعلى صدرها إلى أسفل ركبتها، وهي في الخمسين من العمر، وتجيد الإنكليزية وهذا هو ما يهمني.

تكلمت الدليلة فقالت: أظنكم كلكم تتكلمون الإنكليزية ولا تحتاجون غيرها فقالوا كلهم: نعم. فقالت: إننا سنمر بفندقين آخرين نلتقط منهما ركابا، وقالت: اسمي (آميليا)، وأنا من جزيرة موريا هذه. ثم مررنا بأحد الفنادق على شاطئ البحر وكل ما فيه مقام من الخشب والقش، وركبت معنا أسرة مختلطة.

الرجل هندي اسمر شديد السمرة من مواليد جنوب أفريقيا ومهاجر إلى كندا، والمرأة التي هي زوجته أوروبية بيضاء، وأطفالهما الثلاثة مختلطون، أما بقية السياح فهم زوجان مجريان يعيشان في الولايات المتحدة، وزوجان إيطاليان، وكلهم كبير السن.

باو باو:

وصلنا منازل قليلة العدد لا تستحق أن تسمى قرية، ولكن الدليلة نوهت بها لقلة السكان عندهم فقالت: إن هذه المنطقة اسمها (باو باو)، وإن من أهم

ما فيها مستشفى صغير يخدم أهل هذه الجزيرة الصغيرة، وفيه من العاملين طبيب واحد وثلاثة من المساعدين الصحيين.



المؤلف داخل ريف موريا

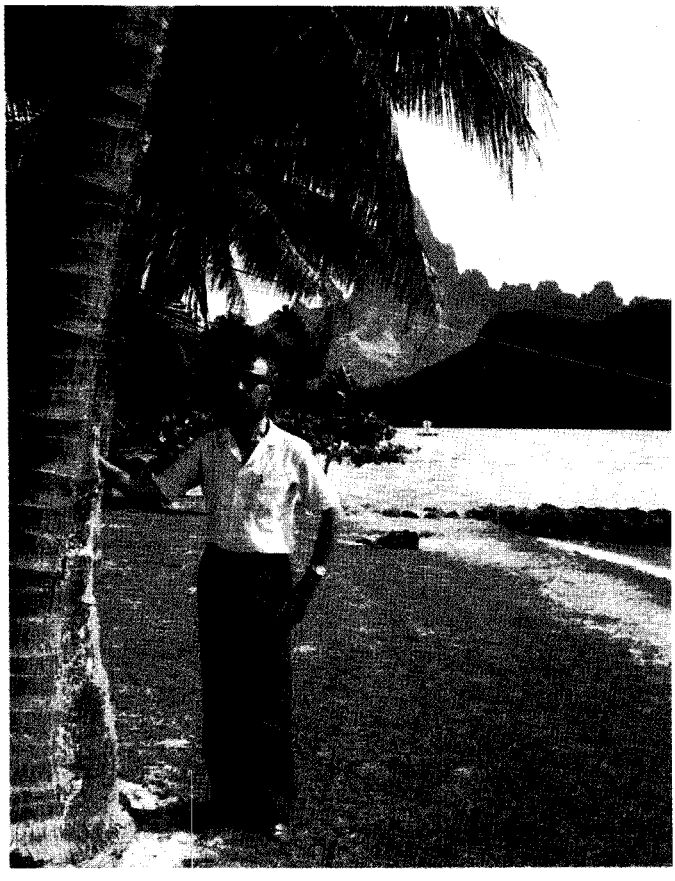
وهو في موقع جميل من حضن جبل يطل على البحر، ويرى المرء منه قمة عالية من الجبال اسمها (بالي هاي)، وقد استطال ظلها ونحن لا نزال في وقت الظهر، فذكرت جبالاً تسمى في الوقت الحاضر (العسيبيات) واقعة في عالية نجد، وكانت تسمى في القديم هضب الشمو سين، نوه بذكرها شعراء العرب القدامى، وذكر أحدهم في شعره أن القمر أن لا يرى من ورائها إلا بعد ثمان ليالٍ من هلاله لارتفاعها.

وذلك مع الفارق العظيم ما بينها وبين هذه الجبال التاهيتية الخضر، فتلك عارية من النبات والحيوانات.

ومررنا بشجرة من أشجار الأنبة أو العمبة (المانغو)، وهي كبيرة بحيث

كانت تظل الطريق الذي مررنا به، وقالت الدليلة: إن الفرنسيين هم الذين أحضروا (المانقو) لهذه الجزر، ولم يكن من أشجارها القديمة المعروفة.

وقد أصبح الطريق ترابياً لأنها قصدت الجولة بين أشجار الغابات، وقد حرصت الدليلة على ذكر أسماء الأشجار والنبات، وبخاصة أن الزوجين المجريين وهما عجوزان كانا يسألان عن الأشجار، ويصور الرجل الغريب منها.



المؤلف تحت ظل شجرة نارجيل في جزيرة موريا

وسألتها عن الطعام الرئيسي في هذه الجزر، فأجابت بأنه الأرز، فقلت لها: إنه لا يزرع هنا؟، قالت: نعم نحن نستورده، وقبل ذلك كان الأكل اليام

والماينوكا، وهو عروق في التربة شبيه بالبطاطس، ولكنه أكبر منه وأغلظ وأطول، بل يكون بعضه كعروق الأشجار الكبيرة كما سبق.

وعندما ذكرت للسياح الدوريان، وقد رأيناه مثمراً لم يعرفه أحد منهم ولم يفهموا شرحها، فأوضحت لهم ذلك، والكلام كله بالإنكليزية وحدها، وأخبرتهم أنه فاكهة استوائية خبيثة الرائحة، يزعمون أنها مفيدة جداً في تقوية أمور مهمة من الجسم.

وكذلك وقفوا عند الشجرة الكبيرة المشهورة: المعروفة بفاكهة الخبز أو (برد فروت) بالإنكليزية لأنها من أشجار المناطق الاستوائية غير المعروفة في البلدان الباردة والمعتدلة.

منطقة القهوة العربية:

لم تغب العربية عن هذه الجزيرة، فقد التقيت في فندق (كيا أورا) بالشاب الفرنسي الذي يعرف كلمات من العربية.

وهنا نوهت الدليلة باسم منطقة وصلناها وقالت إنه: (أربى كافي)، وشرحت بأن أربي (عربي) منسوب إلى العرب وكافي: القهوة، وقالت: إن السبب في تسمية المنطقة بهذا الاسم أن الفرنسيين أحضروا أشجاراً من أشجار القهوة العربية وغرسوها هنا، فاستفسر الواقفون عن السبب في نسبتها للعرب، فلم تعرف إلا أن هناك قهوة عربية وأخرى تركية مثلاً، فأوضحت لهم أن القهوة العربية هي أصل القهوة كلها في العالم، وأن كلمة (كوفي) بالإنكليزية، و (كافي) بالفرنسية وبقية اللغات اللاتينية هي متطورة من اللفظة العربية (قهوة)، ولا تزال القهوة العربية التي يراد بها حبوب البن المجلوب من البلدان العربية مثل اليمن وما يقابلها من بلاد الحبشة معروفة بنكهتها الخاصة عند ذواقي القهوة.

و (منطقة القهوة العربية) الآن كما رأيناها هي غابات ملتفة في مكان مرتفع نوعاً ما عن سطح البحر، وأشجار القهوة قليلة ولكن المنطقة ظلت تسمى (منطقة القهوة العربية) حتى الآن.

الغابات الطبيعية:

ثم صعدنا مكاناً مرتفعاً قد حموه من التغيير، وجعلوه منطقة عذراء باقية كما خلقها الله، وذلك من أجل المتعة بمنظرها، والاستفادة منها في الدراسة.

ولا تزال الدليلة تحرص على أن تُريَ السياح أنواع الأشجار، وتذكر لهم أسماءها، وما تيسر من أحوالها، وذلك لعدم وجود أشياء تستحق الذكر عندهم غيرها.

ثم انحدرنا إلى مكان منخفض، فسلكنا طريقاً إزفلتياً أفضى بسرعة إلى سفح جبل عالٍ أخضر؛ بل كثيف الخضرة مثل بقية أنحاء هذه الجزيرة الصغيرة.

الركن الجميل:

أخذ الطريق المزفت يصعد وهو يلتوي في أحضان الجبل يشق غابات ملتفة حتى وصلنا إلى مكان مطمئن ضيق في كتف الجبل ذكرت الدليلة أن اسمه بالفرنسية: «باليفدير»، وقالت: إن معنى ذلك بالإنكليزية (الركن الجميل)، فقلت: إنه اسم على مسمى بحق، وهذا الركن الجميل تشرف عليه قمم خضر، ويشرف هو على شاطئ جميل أخضر، بل على شاطئين جميلين تفصل بينهما إحدى الهضاب المجللة بالغابات.

وقد وقفنا هنيهة في المكان، وأخذ الرفاق يلتقطون الصور التذكارية فيه، لأنه كما قلت واقع بين الشاطئين والقمم الجبلية الخضر.



المؤلف بين أوراق الشجرة الواسعة في جزيرة موريا

الديانة القديمة:

سارت الحافلة منحدرة، فوقفت عند مكان في وسط الغابة، وكانت وهي تشير باهتمام إلى مكان مسور بالحجارة إلى ارتفاع يقرب من المتر ومدفون من وسطه بالتراب وهي تقول: هذا (ماري)، ولم نفهم معنى (ماري) حتى فسرته بأنه كان معبداً قديماً أو هيكلاً للسكان القدماء عندما

كانوا على ديانتهم قبل وصول الأوروبيين ووصول دعاة النصرانية الذين نصروهم كلهم تقريباً، حتى صار كل سكان هذه الجزر أو أكثرهم من المسيحيين على اختلاف المذاهب المسيحية التي عملت في التنصير هنا، ولذلك وجدت عندهم كنائس متعددة لمذاهب متعددة.

وذكرت الدليلة وهي تتحدث عن (الماري) هذا أن الموقع المحاط بالصخور هو الجزء الأهم في (الماري)، وهو المكان الذي تقرب فيه القربان الآدمية لآلهتهم، ومن ذلك النساء، فقد كانوا يقدمون النساء قرباناً لآلهتهم تحت ظروف دينية خاصة يضحون بهن.

وذكرت أنه لا تزال توجد أماكن عديدة من هذه الأمكنة المسماة (ماري) في هذه الجزيرة الصغيرة، ثم أرتنا اثنين آخرين، وقالت: إن هذه الأماكن معروفة الآن بصفتها أماكن تاريخية ليس غير، وإنه لا يوجد الآن في الجزيرة من يدين بذلك الدين.

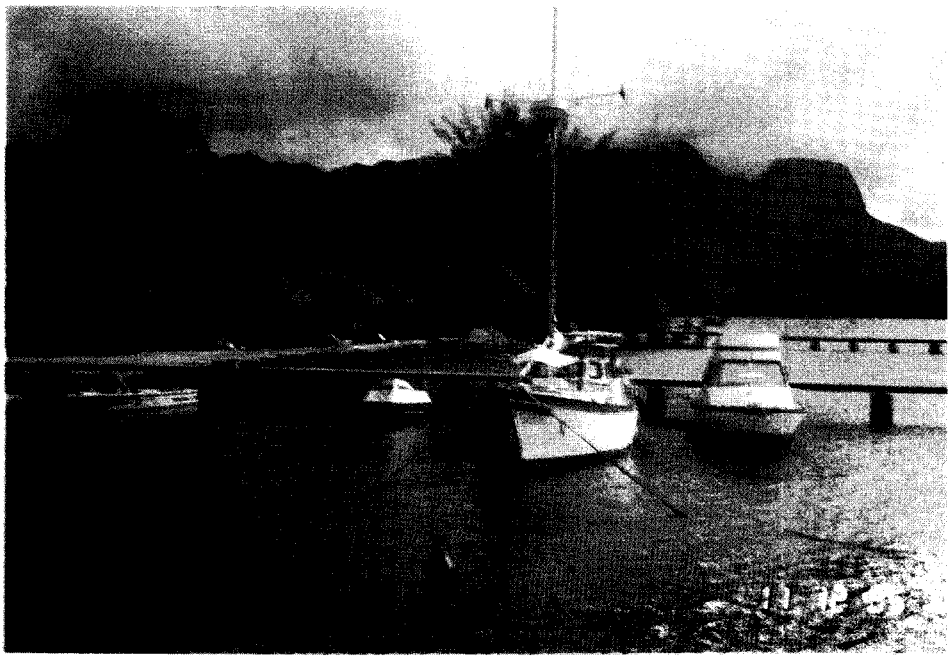
ثم نزلنا إلى مكان منخفض مستو وهو غير واسع لأن الأماكن الواسعة في الجزيرة قليلة، وقد استغلوه فجعلوه مزرعة لتربية عدد من الأبقار.

ويذكر بهذه المناسبة أن تاهيتي تستورد اللحوم من (نيوزلندا).

ووقفنا في الطريق عند شجرة من شجر الجوافا البرية، وفيها ثمر ناضج، فأكلنا منه ولا بأس بجودته.

شاطئ أبو نوهو:

ثم وقفت الحافلة قرب أحد الشواطئ الجميلة المتعددة في الجزيرة وقالت الدليلة: هذا هو الشاطئ المسمى (أبو نوهو)، وفيه هذا المتجر الذي ترونه فيه مقهاة صغيرة تستطيعون أن تشربوا فيها ما تشاؤون من بارد أو حار، ويسمى المتجر: (متجر أسنان القرش) والمراد بالقرش هو السمك المفترس؛ لأنهم نشروا صورته على لافتة المتجر.



قوارب عند مرسى جزيرة موريا

فشربنا فيه شراباً بارداً، وأكلنا موزاً أهداه أحد الرفاق، واسترحنا قليلاً.

العودة إلى بابيتي:

كنت متخوفاً من التأخر في العودة إلى بابيتي الذي قد يسبب لي مشكلة كبيرة لو حصل؛ لأنني سأغادرها الليلة، وهذه الرحلة البحرية هي آخر الرحلات لهذا اليوم.

وأوصلتني الدليلة إلى الميناء مع الرابعة، وهو الوقت المناسب؛ لأن القارب تحرك بعد الرابعة بقليل.

ومن الطريف في الأمر أنني رأيت صندوقاً في القارب من الورق المقوى (الكارتون) عليه كتابة عربية واضحة؛ بل الكتابة العربية عليه أكثر من

الحروف اللاتينية، فجعلت أنسخ ما فيه، وهو من صادرات فرنسا، فرأتني إحدى المضيفتين في القارب، فسألتني عما إذا كنت أعرف هذا المكتوب عليه، فأخبرتها بأنها لغتي العربية فعجبت من ذلك وقالت: إنها أول مرة في حياتي أرى فيها عربياً، ثم سألتني عن أشياء من اللغة العربية، وبخاصة عن كلمة الوداع العربية فأخبرتها بأنها (مع السلامة).

ثم تركتها ولم أتحدث إليها بعد ذلك، ولكنني فوجئت بكونها وهي تقف على سلم القارب عند الوصول تودع الركاب الذين كانوا معها وهي تقول لمن تعرف أنهم يتكلمون الإنكليزية: (قود باي)، ولمن يتكلمون الفرنسية: (أور فوار)، ولما رأتني قالت بالعربية: (مع السلامة).

كان القارب يتحرك وأنا ألتقط صورة لمنشأته الخشبية، وصورة أخرى لأثلة متربعة وسط أشجار الغابات، وهي كأثلنا العربي لا يختلف عنه بشيء، واستغرقت الرحلة ساعة وعشر دقائق حيث عدت إلى (بابيتي) في الخامسة والثلث بعد رحلة ممتعة.

وجدت في إدارة الفندق موظفة رقيقة مختلطة، ما بين الفرنسيين والصينيين اسمها (إنجيلينا)، وهي فرنسية اللغة والثقافة، فأخبرتها أنني سأغادر الفندق في الثانية والنصف بعد منتصف الليل، وسوف أنام مبكراً، لذلك أريد أن أدفع ما علي للفندق الآن، وأكثره بالدولار فقالت: إن الفندق يصرف الدولار بسعر منخفض، وأرى أن تبحث عمن يصرف لك الدولار بسعر أغلى في الخارج، وكانت المصارف مقفلة ولم أجد، فصرفت الدولار عندها بالسعر المنخفض، وكانت قائمتي تسعة وعشرين ألف فرنك ونيفاً ويساوي ذلك مائتين وعشرين دولاراً تقريباً لأربع ليال لا يلحقها شيء من المأكل أو المطعم ما عدا مكالمة هاتفية للمملكة لمدة ثلاث دقائق.

مشكلة القبلة:

وأن أردنا تخفيفها قلنا: إنها مسألة القبلة في تاهيتي.

كنت كلمت أم ناصر زوجتي في بيتي في الرياض ونحن في الليل فقلت لها: مساء الخير، فقالت: صباح الخير، وذلك أن الفرق في التوقيت ما بيننا وبين تاهيتي هو إحدى عشرة ساعة ونصف، ومعنى هذا أن وقت الشروق هنا هو وقت الغروب في بلادنا والعكس بالعكس.

وليس هذا بالمهم مع كونه يستحق التنويه، وإنما المهم موضوع القبلة في الصلاة، فقد كنت أصلي منذ أن فارقت المملكة جهة الغرب، لأن البلدان التي مررت بها كلها قبلتها إلى الغرب مثل باكستان، وأستراليا، ونيوزلندا، وحتى تونغا الواقعة قبل خط التاريخ الدولي، مع فارق قليل منها في الاتجاه.

أما في (تاهيتي)، فإن الأمر فيها أشكل عليّ كما كان قد أشكل عليّ في جزيرتي (ساموا) اللتين هما: دولة (ساموا)، وجزيرة ساموا الأمريكية، فهما خلف خط الطول الدولي، وعندهما كما في تاهيتي تتساوى المسافة إلى الكعبة على وجه التقريب للذاهب جهة المشرق وجهة المغرب، ومن الأمثلة على ذلك أنك إن أردت السفر إلى البلدان العربية في آسيا خيرتك شركات الطيران في الذهاب جهة الشرق عن طريق أستراليا ثم جنوب شرقي آسيا، أو جهة الغرب عن طريق الولايات المتحدة الأمريكية لا تزيد الأجرة في أي اتجاه عن الاتجاه الآخر.

ومع أن هذا لا يعني التساوي في المسافة بالضبط، وإنما هو تقريبي، فإن المسافة متقاربة بدون شك.

وإذا كان الأمر كذلك، فهل يصلي المسلم في هذه الجزر، وبخاصة في (تاهيتي) هذه جهة الشرق أم جهة الغرب؟

وهل يمكن أن يقال: إذا كان المرء في منطقة تتساوى فيها بالضبط أو بالتقريب المسافة إلى الكعبة المشرفة جهة الشرق وجهة الغرب أنه إذا صلى اثنان؛ أحدهما مستدبر الآخر، بمعنى أن أحدهما صلى إلى المشرق، والآخر صلى إلى المغرب صحت صلاة كل واحد منهما؟.

بل يمكن أن يقال: إن المرء نفسه إذا صلى صلاة جهة الشرق، وصلاة أخرى عكسها أي جهة الغرب، فإن صلاته تكون صحيحة في كلا الاتجاهين؟.

أما أنا فإنني واصلت الصلاة متجهاً جهة الغرب، وذلك لسهولة الاستدلال على القبلة في هذه الجهة؛ لأنها جهة اليمين من مغرب الشمس، وأما في الشرق فإن تحديد القبلة فيه صعوبة لمن يكون مثلي لم يألف الصلاة إلى الشرق.

وفي هذه الحالة وأمثالها ينبغي أن يتدبر المسلم قوله تعالى: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾ فذكر في الآية الكريمة أن المشرق والمغرب كليهما لله تعالى، وهذا تمهيد للجملة بعدها وهي: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ ثم ختم الآية بذكر سعة علم الله تعالى وشموله فقال: ﴿إن الله واسع عليم﴾.

وقلت للمديرة المناوبة: إنني سأغادر الفندق الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، وأريد أن تستدعي لي سيارة أجرة في ذلك الموعد، وأن يوقظوني في الثانية لأنني سوف أحاول النوم مبكراً لأن أمامي سهراً متواصلاً في يوم من الأيام الطويلة الممتدة من (بابيتي) إلى بانكوك عبر سيدني.

يوم الخميس ٢٩ /٣/ ١٤٠٦هـ ١٢ /١٢ / ١٩٨٥م

مغادرة تاهيتي:

أيقظني موظف في الفندق في الثانية بعد منتصف الليل، وكنت مستيقظاً قبل ذلك، واستدعى سائق الأجرة في الموعد المحدد، وقد أحضرت إليه السائق وقلت له: أسأل المكتب الذي جاء منه وهو يسمع عن مقدار الأجرة إلى المطار، لأن سائق الأجرة الذي حضرت معه إلى هنا أخذ مني زيادة عن المقرر، فأجابه المكتب بأن الأجرة في مثل هذه الساعة من الليل هي ألف وخمسمائة فرنك، وأما في النهار فإنها ثمانمائة فرنك، وركبت معه ولم يكلمني، وهو يسابق الريح بسيارته حتى وقفت عند المطار فأعطيته ألفي فرنك ليرد علي الباقي فأعطاني مائة فرنك فطلبت منه البقية فقال: إن الحقيبة أجرتها أربعمائة فرنك. وهذا غير صحيح، ولكنه أراد أن يأخذ مني زيادة على عادتهم في عدم الثقة فلما أخبرته أنني لا أحمل إلا حقيبة واحدة لا يمكن أن يكون عليها أجرة، رد علي الباقي وهو يقول بالإنكليزية ولم يكن حدثني بها من قبل: (قو أمريكان)، أي انصرف أيها الأمريكي، أو أبعدك الله أيها الأمريكي.

وربما كان لا يدرك أنني لن أبالي بهذا الشتم، لأنني أكره سياسة الأمريكيين أكثر مما يكرههم الآخرون لما فعلوه في بلادنا من تأييد لليهود ووقوف في وجه الحق العربي.

وكان يظنني أمريكياً، وهذه هي كلمة الوداع الأخيرة من هذه الجزر التاهيتية.

وكانت مكاتب الترحيل في المطار تحت رواق عريض مفتوح جهة الشارع، ولم يسمحوا للركاب بالدخول إلى قاعات المغادرة إلا قبل قيام

الطائرة بنحو الساعة.

ورأيت صرصاراً يتمشى في قاعة الترحيل، فذكرت أن صرصاراً مثله كان يتمشى في غرفتي في الفندق، وهي في الطابق السادس الليلة البارحة، كما رأيت صرصاراً آخر في مصعد المطار عندما كنت أنزل أمتعتي منه قبل قليل.

ولاحظت هنا ما لاحظته في القدوم، وهو أن جميع موظفي المطار هم من الفرنسيين الخلص، وجميع المعاملة فيه ميسرة، وتسير على نظام جيد، حتى عملتهم المحلية وهو الفرنك يستطيع من يبقى معه شيء منها أن يصرفه من مصرف في المطار بأيه عملة يريدها من دون أن يطلبوا منه شهادة بأنه قد حصل عليها من مصرف رسمي.

وهي فرنك خاص مكتوب عليه لفظ (الجمهورية الفرنسية)، ويساوي الدولار الأمريكي منه ١٣٤ في المصرف.

دخلنا إلى قاعة المغادرة، وهي حديثة جيدة التأثيث؛ بل فاخرة التأثيث بحيث إن المقاعد فيها هي أفخم وأفخر من المقاعد الموجودة في مطار (شارل ديقول) في باريس.

ولم يتقاضوا من المغادرين رسماً لمغادرة المطار بخلاف المطارات السابقة التي غادرناها، فكلها تتقاضى رسماً معيناً لمغادرة المطار كما هو الشائع في أكثر البلدان، حتى إن البرازيل مثلاً تتقاضى في بعض مطاراتها الداخلية من الذين يسافرون إلى مدنٍ داخلية أيضاً رسماً للمغادرة، وإن يكن قد أصبح قليلاً بالنسبة إلى السائح الأجنبي مثلنا لهبوط قيمة علمتهم الكروزيرو بالنسبة إلى العملات العالمية.

من بابيتي إلى سيدني:

من الأشياء التي عجبت لها أن إعلان المغادرة من مكبر الصوت في المطار

كان بالإنكليزية فقط، ولم يعلنوه بالفرنسية مع أننا في أرض فرنسية واللغة الفرنسية هنا هي الرسمية، ولكن الطائرة التي سنسافر عليها هي أسترالية، ولغة الأستراليين هي الإنكليزية، ثم يفترضون أنه إذا وجد بينهم من تكون الفرنسية لغته الأصيلة فإنه سيعرف الإنكليزية.

كما أعلنوا أن على الركاب الذين تقع مقاعدهم في مقدمة الطائرة وقد حددوا أرقامها أن يغادروا من البوابة رقم (١)، والركاب الآخرون وذكروا أرقام مقاعدهم من البوابة رقم (٢)، وقد فعلوا ذلك من أجل أن يصعد كل جانب من الركاب إلى الطائرة مع سلم معين يكون أقرب إلى مقاعدهم من السلم الآخر.

وفي الساعة الرابعة والنصف من قبل الفجر بتوقيت تاهيتي الذي يسبق توقيت المملكة بإحدى عشرة ساعة ونصف غادرت الطائرة الأسترالية من طراز بوينغ ٧٤٧ الضخمة مطار بابيتي، وأعلن مكبر الصوت فيها أن مدة الطيران إلى سيدني ستستمر ثماني ساعات ونصفاً دون توقف.

وهذه المسافة تقل بساعتين فقط عن المسافة من نيويورك إلى جدة مثلاً، وتزيد حوالي الساعتين عن المسافة ما بين جدة ولندن.

وقد وزع المضيفون بعد ذلك على الركاب ورقة تبين الوجبات التي ستقدم في هذه الرحلة، وذكروا المسافة فيها، وتبين أن الطائرة قادمة من مدينة لوس أنجلوس في الولايات المتحدة، وذكروا المسافة منها إلى (بابيتي) عاصمة تاهيتي، وأنها ثمان ساعات، فهي أقل من المسافة إلى سيدني بنصف ساعة، وهذا يبين البعد السحيق لتاهيتي هذه.

ولم يلبثوا أن قدموا وجبة جيدة مع أنهم أسموها إفطاراً، وهي قبل الفجر، لأننا كنا نبتعد جهة الغرب، ثم أغلقوا النوافذ وأطفأوا الأنوار ليتيحوا لمن يريد من الركاب الفرصة لإغفاءة.

وقد وجدناهم جهزوا للركاب الوسائد والأغطية من قبل كما تفعل الشركات الراقية، لا كما فعلت الطائرة البريطانية التي سافرت معها من سنغافورة إلى ملبورن وسيدني ولم يكن فيها عدد الأغطية كافياً، ولم يكونوا يعطونها الركاب إلا بعد سؤال وإلحاح.

تباشير الفجر المشكل:

مع أن الفجر وتباشيره مؤذنة بانتشار النور، وبدء النشاط اليومي الذي يبدأ عندنا نحن المسلمين بصلاة الفجر، فإنه يشوبه بعض الإشكال اليوم، إذْ هو بالنسبة إلينا قبل أن نغادر بابيتي إلى ما بعدها بقليل فجر الخميس، وبعد ذلك صار هو نفسه فجر الجمعة كما سيأتي.

وبالنظر إلى أننا متجهون في رحلتنا من تاهيتي إلى سيدني في أستراليا من الشرق إلى الغرب، فإنه من الطبيعي أن يتأخر ظهور الفجر لأننا أشبه بمن يهرب من جهة الغرب بسرعة ألف كيلومتر في الساعة أو نحو ذلك؛ لأنها هي سرعة طائرتنا النفاثة العملاقة.

ولذلك لم تلح تباشير الفجر إلا في الخامسة والربع، وكان ظهورها من أيسر الطائرة، وهذا يدل على أننا نسير إلى جهة اليمين قليلاً من مغرب الشمس.

وجاء المضيف بطعام منفرد خصني به، وسألني عما إذا كنت أمرت بإحضار طعام (كاشير) وهو طعام اليهود الذي ذبحه اليهود، فقلت: لا، فأنا لم أطلب أي طعام خاص في هذه الطائرة، كما لم أكن طلبت مثل ذلك في رحلات أخرى إذا كان أهلها من أهل الكتاب الذين تحل ذبيحتهم مثل أهل تاهيتي وأستراليا، بل مثل أهل الولايات المتحدة الأمريكية التي قامت منها الطائرة في أول رحلتها.

أما إذا كنت في منطقة أهلها ليسوا من أهل الكتاب التي تحل ذبيحتهم

مثل الصين، واليابان، وكوريا فإنني أوصي بأن يكون طعامي من السمك، لأن الحصول في تلك البلاد على طعام ذبحه مسلمون يقدمه أهل الطائرة أمر صعب، بل ربما يكون مستحيلاً، لأن المسلمين الموجودين هناك يذبحون لأنفسهم ما يأكلونه ذبحاً حلالاً، وقد يبيعونه في المساجد والمراكز الإسلامية، ولكن ذلك على نطاق ضيق لا يهتدي إليه إلا من كان خبيراً به.

وهنا قد يأتي السؤال عن أهل الهند التي يؤلف الهنادكة فيها الأكثرية حيث يزيد عددهم فيها على ستمائة مليون، وليسوا من أهل الكتاب ماذا يصنع المسلم تجاه اللحم الذي يقدم على طائراتهم أو في مطاعمهم في الهند أو في أوروبا؟ والجواب: إنه يأكل منه؛ لأن الهنادكة كلهم لا يذبحون الحيوان ولا يأكلون لحمه إلا خفية، وحتى الذين يأكلون اللحم خفية لا يذبحون الحيوان، وإنما يأكلون مما ذبحه المسلمون، والمسلمون هم الذين يذبحون الحيوان في الهند.

وبقيت مسألة مهمة لا بد منها هنا وهي أن توفر شركات الطيران الطعام الحلال للمسلم، وقد فعلت منظمة الطيران الدولية (إياتا)، فأوجبت على شركات الطيران أن توفر الطعام الحلال للمسلمين على طائراتها، وأن تكتب عليه: أنه طعام حلال للمسلمين، وأنه خالٍ من لحم الخنزير، لذلك يحل أكله.

فالحلال للمسلمين في عرفهم هو الخالي من لحم الخنزير، وليس لحم الحيوان الحلال أكله في الأصل إذا كان ذبحه مسلمون أو قوم من أهل الكتاب.

وطالما كنا نقول لأهل الكتاب: إننا نشرب ما تشربون إلا الخمر، وإننا نأكل ما تأكلون من اللحم إلا الخنزير، لأنهم لا يأكلون غير الحيوان المعروف عندنا هذا على وجه الإجمال، ولا يتركون حيواناً نأكله إلا ما كان

من لحم الخيل حيث نأكله وبخاصة مسلمي البلدان الشمالية في روسيا ومنطقة نهر أيدل (الفولقا) فإنهم يأكلون لحوم الخيل بكثرة.

هذا وبعد خمس ساعات من بدء الطيران قدموا الإفطار وهو جيد وافر إلا أن في بعضه خنزيراً أذهب جودته بخلاف العشاء الذي لم يجعلوا فيه شيئاً من لحم الخنزير إلا في السلطة التي يمكن تجنبها.

ثم عرضوا شريطاً سينمائياً بعد ذلك.

الوصول إلى سيدني:

قبيل الوصول إلى مطار مدينة سيدني كبرى المدن الأسترالية أعلنوا ذلك من مكبر الطائرة، وأعلنوا تفاصيل الوقوف حتى ذكروا رقم البوابة التي ستقف عندها الطائرة في المطار.

كما أعلنوا مقدار أجرة السيارة من المطار إلى قلب المدينة، وكل ما يتعلق بالجوازات والمكوس (الجمارك) والتعليمات المتعلقة بالعابرين من سيدني إلى خارجها، وهم قلة لأن استراليا قارة، ويستريح من يأتي إليها بعد عناء رحلته الطويلة، إذ لا يقدم أحد إليها مع مثل هذه الرحلة التي استغرقت من الطيران دون الوقوف أكثر من خمس عشرة ساعة إلا وهو يدخل البلاد ليستريح فيها إذا كان يستطيع الحصول على سمة الدخول إليها، وهي سمة غير صعبة في المعتاد.

إلا قلة من الناس مثلي لم يمنعهم ذلك من مواصلة السفر، إذ من المقرر أن أبقى في قاعة العابرين في المطار خمس ساعات أو نحوها، أواصل بعدها السفر إلى بانكوك فالرياض بإذن الله.

تدنت الطائرة وهي تتدلى فوق مياه المحيط الهادئ الزرقاء الهادئة بالفعل، وكانت فرصة متجددة لمشاهدة مدينة سدني من الجو، ذلك بأن مقعدي كان إلى جوار النافذة، فاستجليت منظر تدنى الطائرة وهي تحوم

حول مدينة سيدني الممتدة إلى مساحات شاسعة قد تصل إلى ٤٠ كيلومتراً، وذلك أن كل بيوتها ما عدا قلبها التجاري المسمى بالداون تاون وما حوله هي من طابق واحد أو طابقين، وقد صارت بسبب ذلك طويلة ممتدة، قد ركبت حتى رؤوساً أرضية داخلة في البحر، وشواطئ أخوار وهي الخلجان البحرية الداخلة في الأرض، وقد جللتها كلها في انتشار عجيب، إلى جانب انتشارها في داخل القارة الأسترالية.

وقد ظهر جسر سدني التاريخي الذي يباهي به أهل المدينة، وهو المقام قرب الميناء يصل بين الجزء القديم من المدينة الذي فيه قلبها التجاري وبين ضواح عديدة من ضواحيها.

وقد حطت الطائرة في مطار (سيدني) الدولي في الساعة الثانية عشرة والربع ظهراً بتوقيت مدينة بابيتي عاصمة جزر تاهيتي، ويوافق ذلك التاسعة والربع صباحاً بتوقيت سيدني الذي يتأخر ثلاث ساعات عن توقيت تاهيتي، وذلك بعد طيران استمر ثمان ساعات إلا ربعاً.

الخميس الذي صار جمعة:

وصلنا (سيدني) بعد أن أمضت الطائرة ثماني ساعات وثلثا من الطيران، فوجدنا اليوم في سيدني هو الجمعة على حين أنه كان عند ركوبنا الطائرة يوم الخميس، ولم تطلع الشمس وتغرب أثناء الطيران، ولكننا كنا قد تجاوزنا خط التاريخ الدولي، ويسمى خط الطول الدولي الذي هو خط وهمي يقطع الأرض من الشمال إلى الجنوب، ويتغير عنده اليوم وتاريخه بمعنى أننا كنا عندما بدأنا الطيران الذي استغرق ثمان ساعات وثلثاً من بابيتي إلى سيدني في يوم الخميس الموافق ٢٦/ ٣/ ١٤٠٦هـ ١٢/ ١٢/ ١٩٨٥م وصلنا إلى سيدني في اليوم نفسه الذي يفترض أنه يوم الخميس كما هو المعتاد، فوجدناه

يوم الجمعة، أي أننا بدأنا الطيران في أول صباح هذا اليوم من بابيتي وأهل سدني يوم الجمعة ونحن في يوم الخميس في آن واحد.

وهذا معناه أننا خسرنا يوماً واحداً هو يوم الخميس الذي تلاشى من تاريخنا كلية عندما وصلنا سدني، ولكنني عندما تأملت الأمر قلت في نفسي ضاحكاً من نفسي: إذا كنت خسرت اليوم يوماً واحداً فإنني كنت قد ربحت يوماً واحداً عندما سافرت قبل الذهاب إلى (تاهيتي) من تونغا عاصمة مملكة تونغا إلى (ساموا)، وكان اتجاه سفري من الغرب إلى الشرق إذ وجدنا يوم ساموا قبل يومنا الذي سافرنا فيه من (تونغا) بيوم.

وتكون الخلاصة إذاً: إنني لم أربح شيئاً ولم أخسر شيئاً من الأيام، وقد ذكرت قصة سفري من تونغا إلى (ساموا) في كتاب: « نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض ».

قلت: إنني عابر من سيدني إلى بانكوك مع أن لدي نحو تسع ساعات من الوقت كافية لدخول سيدني ورؤيتها، وقد عرضت علي موظفة الخطوط الأسترالية في بابيتي التي حجزت معها أن ترتب لي أمر الحصول على سمة دخول إلى سيدني أجدها أمامي في المطار فشكرتها وقلت لها: إنني حديث عهد بسيدني، لا أحتاج إلى رؤيتها ثانية.

وحتى أمتعتي شحنتها من بابيتي إلى بانكوك لأنها ستذهب مع الشركة نفسها وهي الأسترالية (كوانتس).

وقفنا مع صفوف طويلة من الواصلين إلى مطار سيدني وكلهم أو أكثرهم من ذوي المظهر الأوروبي ما عدا بعض العرب من اللبنانيين الذين كانوا وصلوا إلى المطار مع وصولنا على طائرة قادمة من سنغافورة، والأمر عندنا نحن الركاب العابرين سهل، وإنما الصعب عند ضباط الجوازات، فقد ركدت الصفوف حتى اضطر بعض المسافرين إلى الجلوس على الأرض، ولم أكن منهم؛ لأن الوقوف لا يتعبني ولله الحمد، وإنما الذي أتعبني كثيراً أن

بعض الركاب كانوا قد شربوا كثيراً في الطائرة فأفلت منهم زمام الحديث، بل أفلت منهم زمام عقولهم، فصاروا يتبادلون الضحكات والكلام بصوت مرتفع، وأحياناً كانوا يضحكون معاً غير مبالين بشعور الركاب الآخرين.

وقد عهدت الأستراليين من ذوي الأصول الأوروبية لا يتقيدون بما كان تقيد به أجدادهم من الإنكليز الذين كانوا لا يتكلمون إلاّ بحساب حتى يبدو الأمر منهم وكأنما هو عدم مبالاة في بعض الأحيان، أو من باب تبلد الشعور، والحقيقة أن الأمر بالنسبة إليهم ليس كذلك، ولكنهم من باب احتقار الناس، وما فسروه بأنه عدم دخول الأمر فيما لا يعنيه.

قصدت موظف تحويل الرحلات في المطار، فلما رأى جوازي سعودياً تلطف بي وقال: من أي مكان من السعودية أنت؟ وكأنما هو يعرف السعودية، ثم قال: السعودية بعيدة؟، قلت: لا سيما عمن كان مثلي في تاهيتي التي تبعد عن سيدني بحوالي ثمان ساعات بالطائرة العملاقة.

فقال: ألا تريد أن أعطيك سمة دخول إلى سيدني؟ إنني أستطيع أن أحصل لك عليها من الجوازات فتدخل إلى المدينة وتراها خلال توقفك في أستراليا.

فشكرته، وقلت له: إنني كنت في سدني وإنني أحب أن أستريح في قاعة العابرين بعد التعب والسهر البارحة، فقل: تستطيع أن تقضي الوقت في بعض أركان هذه القاعة حتى الواحدة والنصف ظهراً، ثم تأتي إلى هنا لأقطع تذكرتك، فذكرت له أمتعتي التي شحنتها من بابيتي إلى بانكوك مباشرة فقال: سوف أعتني بها وأتأكد بنفسي من شحنها إلى بانكوك.

استراحة مجانية:

جعلت أتمشى في قاعة العابرين التي هي قاعة المغادرة، وهي طويلة ممتدة ذات مقاعد كثيرة، وفيها زوايا وأركان فيها مقاعد مستطيلة مريحة.

ولم تكن بي حاجة إلى أكل أو شرب، فتمددت فوق أحد المقاعد حيث توسدت حقيبتي اليدوية، وجعلت فوقها السترة (الجاكيت)، وذقت طعم التمدد بعد الساعات الطويلة من الركوب في الطائرة والانتظار قبل ذلك في المطار، ونمت لبعض الوقت، ثم ذهبت لمقصف فاخر في القاعة، فجلست أشرب الشاي وأسوّد بعض أوراقي بما تقرأه الآن، ثم دخلت إلى الحمامات في المطار، فوجدتها فاخرة إلى درجة أن أرض الحمام مفروشة بالسجاد، ووجدت فيها غرفة كتبوا عليها أن فيها مروشاً أي (دوشاً) ليغتسل فيه من أراد. ومن ذا الذي يريد الاغتسال في حمام قاعة المغادرة أو قاعة العابرين؟

وطلبت بعد ذلك شطيرة (ساندويتش) من الجبن، وهو خمس قطع، وثمنه مع الشاي دولاران أمريكيان إلا ربعاً أي ١٧٥ سنتيماً، مع أن فنجان الشاي وحده في مقاهي بابيتي ومقاصفها التي لا تقارب هذه الاسترالية في نظافتها وفخامتها بأكثر من ذلك، والشاي هنا بإبريق صغير فيه أكثر من فنجان، وأما في بابيتي فإنهم يحضرون الشاي في فنجان واحد، ولا يحضرونه في إبريق أبداً.

وأعدت التجول في هذه القاعة التي هي قاعة العابرين، وهي قاعة المغادرين التي فيها بوابات الخروج إلى الطائرات.

وفيها متاجر للسلع التي تباع بدون مكوس (جمارك) التي يسمونها (ديوتي فري)، وقد جربت أسعارها، وأنها وهي معفاة من المكوس أعلى من الأسعار في داخل بلادنا، فمثلاً سألت عن قلم يباع في الرياض بعشرة ريالات سعودية يبيعونه هنا بأربعة دولارات إلا خمسة سانتيمات، أي اثني عشر ريالاً.

وفي الواحدة والنصف عدت إلى مكتب تحويل الرحلات، فوجدت عليه الرجل الذي استقبلني عند الوصول، وهو رجل ودي، فأعطاني ما طلبته وهو مقعد عند النافذة، وجاملني بأن ترك المقعد الذي بجانبي خالياً حتى استريح بوضع ما أريد عليه، وقد لاحظت عندما ركبت الطائرة أن جميع مقاعدها مشغولة ما عدا اثنين؛ أحدهما هذا الذي بجانبي، وزاد على ذلك بأن كتب على بطاقة الدخول (خدمة خاصة)، ونص ما كتبه بالإنكليزية (اسبيشل سيرف) وكتب عليها أيضاً حروف (twov) ولم أعرف معناها:

من سيدني إلى بانكوك:

عندما اجتمع الركاب عند بوابة الخروج إلى الطائرة لم أصدق أنها ستتسع لهم لكثرتهم، ولذلك عندما ركبوا لم يكن في جميع درجاتها أي مقعد خالٍ إلا اثنان أحدهما الذي بجانبي.

والطائرة متجهة في الأصل إلى أوروبا ومارة ببانكوك.

وأعلنوا والطائرة تستعد للإقلاع أن الطيران إلى بانكوك سوف يستغرق تسع ساعات إلا عشر دقائق، ثم أقلعت في الخامسة إلا الربع عصراً بتوقيت سيدني.

وهي من طراز بوينغ ٧٤٧ العملاق المسمى (جامبو) تابعة لشركة كوانتس الأسترالية، وقد كان مقعدي عند النافذة أتاح لي رؤية الأرض تحت الطائرة لأن الجو كان صاحياً والشمس ساطعة.

اخترقت الطائرة جو مدينة (سيدني) المتسعة المتفرقة في الوديان والشعاب وعلى الأماكن المرتفعة، والطائرة ترتفع في تحليقها بسرعة، واستمرت فترة دون أن يفارقنا منظر مدينة سيدني، ثم اعترض الطائرة سحاب مزقته وارتفعت فوقه.

هذا وقد أخذ المضيفون يوزعون على الركاب جميعهم حتى ركاب الدرجة السياحية قوائم الطعام وأنواعها من عشاء إلى تصبيرة، وهي العشاء المتأخر المسى (صبر) بالإنكليزية، مع بيان المسافات بين المدن التي ستذهب إليها الطائرة، وهي: بانكوك، وأثينا، وروما، وليس في القائمة التي ستقدم في هذه الرحلة شيء مما مسه لحم الخنزير أصلاً، وقد كتبوا أن الطيران من سيدني إلى بانكوك يستغرق ٩ ساعات مع أنهم ذكروا من مكبر الطائرة أن مدته تسع ساعات إلا عشر دقائق، ولعل لاتجاه الرياح دخلاً في ذلك.

وبدأوا بتوزيع الأشربة، ومنها عصير من عصير البرتقال اللذيذ لأنه من بلادهم.

هذا وكنت أواصل النظر من نافذتي إلى الأرض من باب العادة فلم أشعر إلا بالسحب التي كانت في الجو قد تلاشت، أو نحن أبعدنا عنها ولم يبق شيء منها في الجو، وأن الخضرة التي كانت موجودة في الأرض قد قلت حتى تلاشت أيضاً، فصار الجو صاحياً ليس فيه قزعة من الغيم، ومنظر الأرض غدا صحراوياً وكأنه جو بلادنا في الصحراء دون فرق ملحوظ.

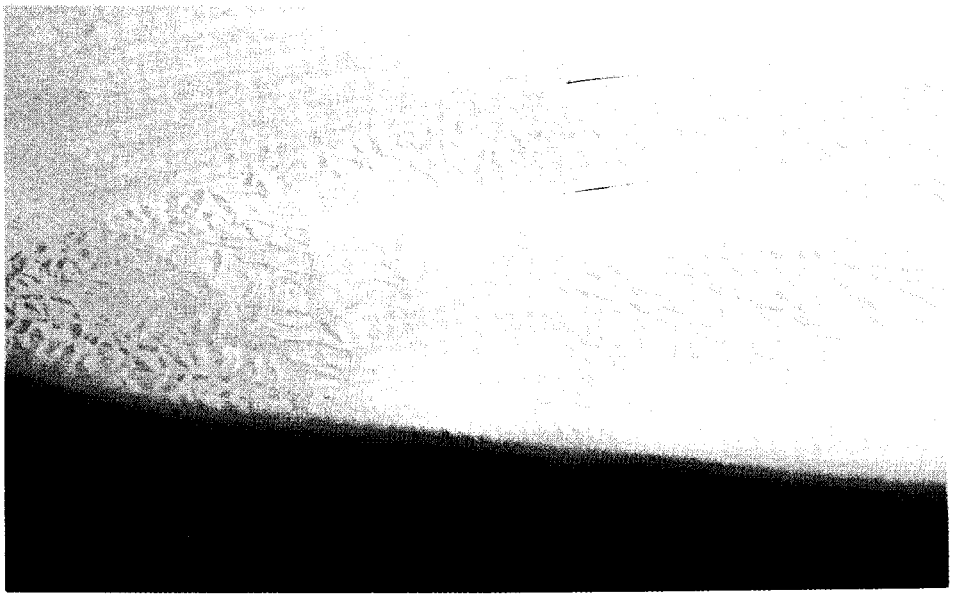
فوق الصحراء الغبراء:

كلما أوغلت الطائرة في طيرانها جهة الشمال المائل إلى الغرب ظهرت الخصائص الصحراوية في الأرض بشكل أوضح، ففيها سنافات، وهي الأماكن الصخرية الممتدة غير المرتفعة، وهي كثيرة في صحرائنا، واحدها: سناف هكذا تسميها العامة في بلادنا، وفيها وديان جافة، فيها الأشجار الصحراوية الكبيرة دون غيرها من أنحاء الصحراء.

ولا ترى فيها أي أثر للعمارة من زراعة أو بنيان أو نحو ذلك.

وأجمل ما في هذه الصحراء ألوانها المختلفة المتعددة ما بين الأحمر إلى الرمادي إلى الأبيض؛ حسب لون الصخور الموجودة فيها أو الطين الذي يكسو

وجه الأرض.



صحراء أستراليا خالية من الحياة تبدو كسطح القمر

ثم رأينا جبالاً حمراً وحراراً سوداً، والحرار: جمع حرة، وهي الأرض التي تركبها حجارة سود، وليس في هذه المنطقة التي نراها من الصحراء أية خطوط إزفلتية.

وقد رأيت في بعض الأودية المتسعة خضرة كخضرة العشب في الصحراء، وربما كان هذا من أثر المطر؛ لأن الجو في أستراليا الآن هو في فصل الربيع، وأما الوديان الضيقة فإن فيها أشجاراً صحراوية تكون على حافتي الوادي الجاف.

وهناك قيعان بيض كثيرة، والقيعان جمع القاع.



ألوان الأرض المتنوعة في صحراء أستراليا

صحراء الصحراء:

كان ابن بطوطة - رحمه الله - يسمى بعض بلاد الصين (صين الصين) كأنه يريد بذلك الصين الخالصة من الشوائب.

وذكرت ذلك عندما صارت الطائرة تطير فوق صحراء جرداء تماماً من النبات، فليس فيها عود أخضر يرى من الطائرة لا من الشجر ولا غيره، وليس في وديانها أشجار؛ بل ليس فيها وديان ظاهرة يمكن تمييزها من الطائرة، إلا لخبير، فقلت في نفسي: هذه يصح أن تسمى صحراء الصحراء قياساً على ما قاله ابن بطوطة عن (صين الصين).

وعندما قارنت في ذهني بينها وبين صحرائنا العربية، رأيت صحراءنا أحسن وأفضل، فهي لا تكاد تعدم في أية ناحية من نواحيها شجراً ونباتاً، وبخاصة في أوقات الربيع، أما هذه الصحراء الأسترالية فإنها هامدة بل ميتة لا

أثر فيها للحياة فيما أشاهده الآن من الطائرة، وإنْ كان ذلك لا يعطي الحقيقة التي تعطيها مشاهدة الأرض من الأرض.

وكنت تحدثت مع أحد الأستراليين في بلادنا، وكان صادف أن ركب بجانبي في إحدى الرحلات داخل المملكة فسألته عن الصحراء الاسترالية، وذلك قبل أن أزور أستراليا فقال: أرأيت أسوأ مكان في صحرائكم من ناحية خلوه من النبات والشجر؟ إن صحراءنا الأسترالية أقل نباتاً منه.

وهذا صحيح فيما عرفته بعد ذلك من حال وسط الصحراء الأسترالية، وهو الذي تطير فوقه أو فوق مثيله طائرتنا الآن.

دهناء أستراليا:

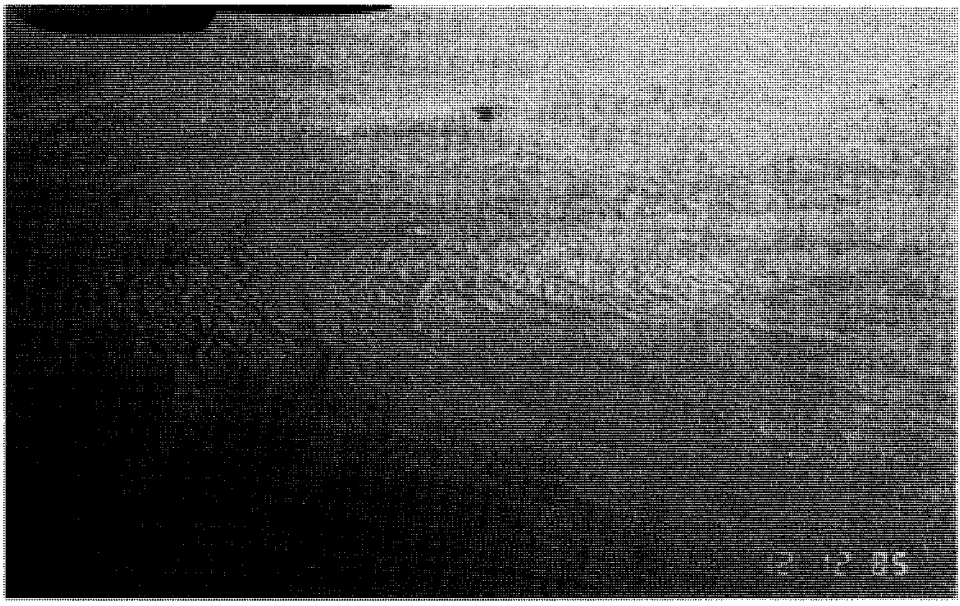
رأيت بعد ذلك رمالاً حمراً على هيئة ضلوع الإنسان بمعنى أنها مضلعة بفعل الرياح الصحراوية، وهي غير مستقيمة الامتداد؛ إلا أن بعضها واقع خلف بعض مما ذكرني ببعض الرمال الصحراوية في بلادنا، ولم أعرف مدى سعة هذه الرمال الصحراوية وما إذا كانت مثل رمال الدهناء عندنا، إلا أنني لاحظت أن رمالها أقل ارتكاماً من رمالنا التي يركب بعضها بعضاً في الدهناء، ولكنها على أية حال يصح أن تسمى (دهناء أستراليا).

كما رأيت بعدها أنواعاً من الحجارة منقادة كأنها الجدران الطويلة الممتدة، كل ذلك دون أن يكون فيها أو في الرمال التي قبلها عود أخضر.

هذا وطائرتنا تلهث - على قوتها - فوق هذه الصحراء العطشى التي يبدو للناظر إليها من الطائرة وكأنها لا نهاية لها.

ثم وصلت الطائرة فوق منطقة صخرية غيرت المنظر، وإن كان منظر الصحراء الجافة هو السائد، فالتقطت لها صورة من الطائرة لا أدري أتكون

واضحة، لأن تحديب زجاج النافذة في الطائرة يمنع من تصويب العدسة إلى الأرض تصويباً صحيحاً.



الخطوط المتعرجة في صحراء أستراليا

(تصوير المؤلف من الطائرة)

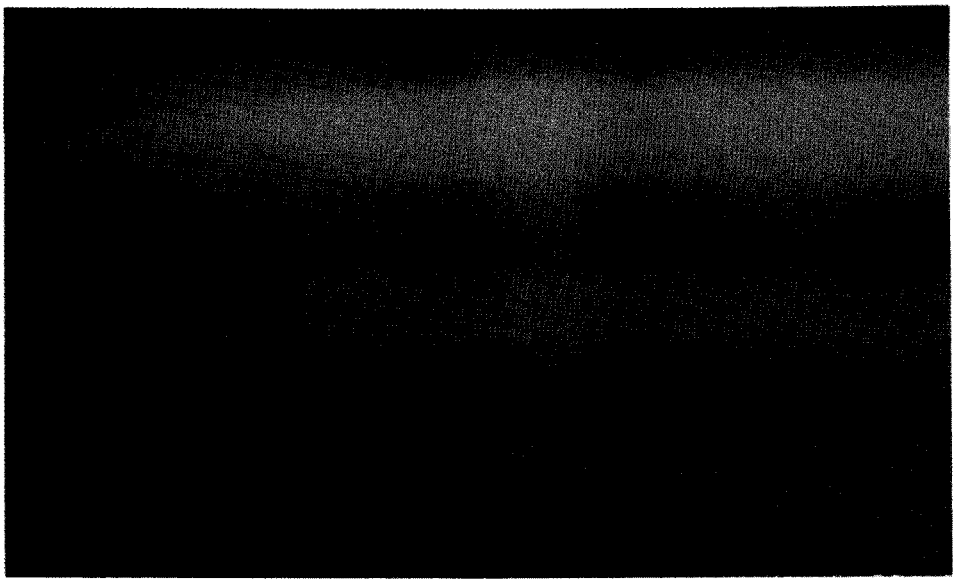
أما الأفق الذي يرى من الطائرة وهي تحلق عالياً فوق الصحراء فإن لونه يتراوح بين الرمادي والأزرق والبني، وكأنما تمتزج أطراف هذه الألوان بعضها ببعض فتصنع لوناً رائعاً يصعب وصفه.

البراق الأسترالية:

والبراق هي جمع برقة، وهي في اللغة الفصحى وفي العامية عندنا أيضاً: الرمل الذي يركب الجبل في أسفله، وإذا ما جلل الرمل الجبل كله يسمى (أبرق).

وهذه البراق كثيرة في بلادنا العربية تغنى بها الشعراء القدماء، ومدحوا

الجلوس إليها، وذلك لنعومة الرمل الذي أسفل الجبل، بالنسبة إلى الأرض التي تكون حوله، ويكون مرتفعاً عن الأرض بعيداً عن الأقذاء.



صحراء أستراليا قبل غروب الشمس

لقد شاهدت الآن عدداً من الجبال الأسترالية ذات البراق، وهي تكسو سفوحها الرمال الصافية التي لا يخالطها مخالط من طين أو نبات، والغريب في هذه البراق الأسترالية التي نراها من الطائرة ليس مجرد وجودها، فذلك طبيعي في الصحراء، وإنما تعدد ألوان رمالها، فهناك براق حمر الرمال، وأخرى غبر، أي مغبرة الرمال فهي ذات لون أغبر، وقد مالت شمس الصحراء هذه إلى جهة الغرب فطالت ظلال الجبال، وبذلك تراآى لي أن ظلالها باردة، وأن سمومها قد ولى وحل محله الطائف، وهو الهواء الذي يتحرك بعد الزوال في الصحراء.

ثم تخيلت شبيهاً بها منظراً آخر لم أخبره خبراً مثل براق الصحراء،

وإنما نظرت إليه نظراً متكرراً من التلفاز لغرابته، ولعدم تخيل مرآه من قبل؛ بل عدم التصديق بوجوده من قبل، ألا وهو منظر التلال في سطح القمر عندما نزل عليه الرواد الأمريكيون، فأرضه تشبه هذه الأرض من حيث عدم وجود شيء فيها يتحرك غير تلك الظلال التي تسببها التلال، وليس فيها من نبات أو شجر.

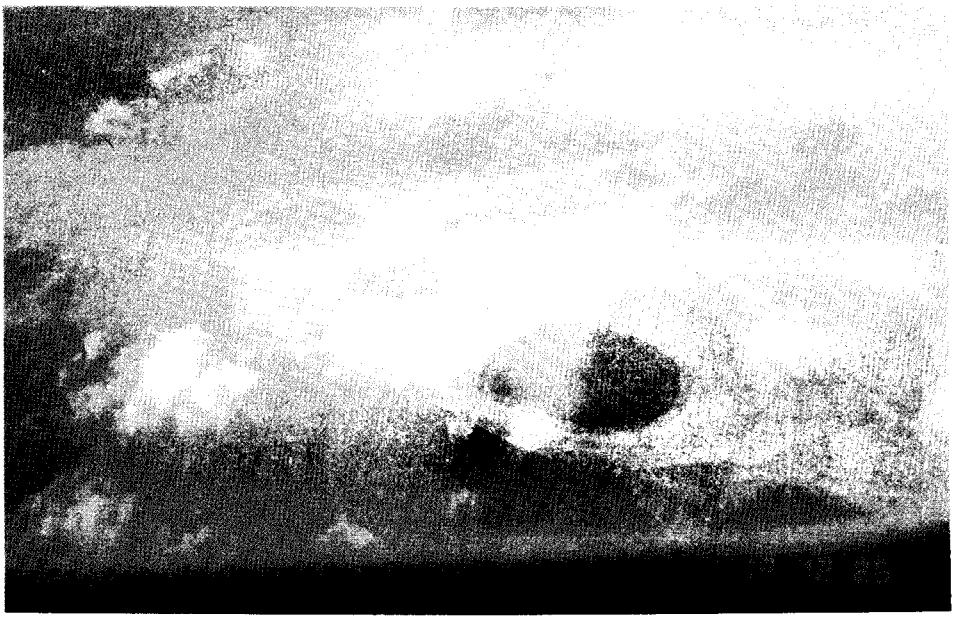
هذه الصحراء الأسترالية لا تزال هي الصحراء الجرداء لم تتغير إلا بما أحدثته العوامل الجوية فيها على مر القرون، ولم نطلع على حياة أهلها من سكان أستراليا الأصلاء الذين كانوا في أستراليا قبل وصول الأوروبيين وهم المسمون (أبو رجنال)، فأولئك وجدهم الأوربيون في أراضي أستراليا الخصبة في أطراف القارة، وفيما حول أطرافها حتى في جزيرة تسمانيا التي تقع جنوباً من القارة منفصلة عنها، ولا أدري ما إذا كانت هذه الصحراء الأسترالية مسكونة أم لم تكن، وظني أنها لم تكن مسكونة، لأن أهالي القارة الأصلاء على قلتهم يجدون في الأراضي الخصبة المحيطة بالصحراء ما يغنيهم عن سكناها، اللهم إلا إذا كان ذلك في الأراضي الشبيهة بالصحراوية في أطرافها.

تباشير الاخضرار:

بعد أن قضت الطائرة ثلاث ساعات إلا ربعاً من الطيران فوق الصحراء متجهة جهة الشمال صوب خط الاستواء، ومنطقته المطيرة في أطراف أستراليا الشمالية تغيرت الأرض بوجود بعض السباخ، وهي الأراضي الملحة يكون لونها أبيض، ويتخذ بعضها أشكالاً عجيبة؛ إذْ يكون على هيئة وادٍ يحيط بدائرة من الصخور أو التلال.

وبعد أرض السباخ هذه مباشرة بدأت الأعشاب الخضر تظهر في الأماكن المنخفضة، كما كانت عند بداية الدخول في جواء الصحراء بعد

منطقة سيدني بقليل من المسافة، كما ظهرت كذلك الوديان الجافة التي تكسو حافاتها الأشجار الصحراوية، وبعض الغيوم الرقيقة في الجو، ثم جاءت أول تباشير الخصب في الأرض، على هيئة غدير ضخم من واد ينتهي إليه سيله، ولا أدري أهو سد اصطناعي أم طبيعي.



الصباح في صحراء أستراليا كما ترى من الطائرة

ثم تكاثفت الخضرة، وعرفت أننا فارقنا الصحراء الغبراء، وبدأنا ندخل منطقة الأراضي الاستوائية المعشبة.

وينبغي أن ننوه هنا أن صحراء أستراليا هذه واقعة جنوب خط الاستواء لا يشاركها ذلك الموقع بالنسبة إلى خط الاستواء إلا صحارى قليلة مثل صحراء كلهاري في جنوب إفريقية التي تقع في بتسوانا وناميبيا، أما بقية الصحاري الواسعة العاتية مثل الصحراء الإفريقية الكبرى، والصحراء العربية، وصحارى غوبي في الصين، وصحراء نيفادا في الولايات المتحدة الأمريكية،

فإنها كلها واقعة شمال خط الاستواء.

ولما فارقنا الصحراء، وصرنا نطير فوق الأرض الخضراء، بدأت الشمس في المغيب، وبدأ الظلام ينشر أردانه على تلك البلاد، ولذلك حرمني من هذه الإطلالة اللذيذة عليها من نافذة الطائرة، ولكنه حرمان لن آسف كثيراً عليه؛ لأنني سبق لي أن زرت المناطق الاستوائية المطيرة في أقصى القارة الأسترالية، وذلك حينما قدمت إلى مدينة (دارون) عاصمة المنطقة من جزيرة بالي في إندونيسيا المجاورة، وقد ذكرت ذلك في كتاب: « وراء العمل الإسلامي في القارة الأسترالية ».

وعندما غابت الشمس عن المنطقة انقلب البصر إلى داخل الطائرة المليء بالناس وبالحركة، إلاّ ما حد منه صوت الطائرة الرتيب، وطول السير الذي يبدو كالوئيد، وما زال الأمر كذلك حتى قاربت الطائرة الوصول إلى مطار بانكوك في تايلند.

وقد هبطت بالفعل في المطار في الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل بتوقيت سيدني الأسترالية التي فارقناها وهي التاسعة والنصف فقط بوقت بانكوك التي وصلناها الآن، وهي أيضاً الرابعة والنصف قبل الفجر بتوقيت بابيتي عاصمة تاهيتي التي بدأت منها الرحلة قبل الفجر بقليل، ولكنه فجر الخميس فيها، وإن كان فجر الجمعة في سدني وبانكوك.

ومن بانكوك ذهبت بعد ذلك إلى الرياض، والحديث عن بانكوك وتايلند عامة في كتاب آخر، كان الحديث فيه عن غير هذه الرحلة، وإن كان خاصاً بتايلند عنوانه: «مشاهدات في تايلند». ولله الحمد.

تم الكتاب

المحتويات

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف.... ٥
مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات ١٠
مقدمة ١٣
تاهيتي..... ١٧
تسميتها..... ١٧
تاريخ تاهيتي ١٨
أرض الحليب والعسل ١٩
المعتقدات..... ٢١
من رارو تونغا إلى بابيتيز..... ٢٥
سفر آخر الليل ٢٥
غرة الفجر..... ٣١
في مطار بابيتي ٣٦
في بلدة بابيتي ٤٠
النظرة الأولى ٤٢
الغلاء الفاحش ٤٤
وجولة الأصيل ٤٦
جولة في جزيرة بابيتي ٤٩
عدد السكان ٥٠
تاها باها..... ٥١
نور فينوس ٥٣
هكذا يخلدون سابقيهم ٥٥
التنويه برجال الدين ٥٥
ودعاة الإسلام؟ ٥٦
طريق الشاطئ ٥٩
الشاطئ الجميل ٦٠
باها إينا ٦١
الريف التاهيتي ٦٢
حوانيت النارجيل ٦٣
منطقة قوقوين ٦٤
متحف قاو قونغ ٦٥
حول جزيرة بابيتي ٦٦
مغارة مارارآ ٦٧
العودة إلى بابيتي ٦٩
والدين ٧٠
وجولة الأصيل ٧٠
وفي الشارع الهام ٧٢
عادات مكروهة ٧٣
جزيرة موريا ٧٨
في جزيرة موريا ٨٣
في كيا أورا ٨٥
تجميل الجميل ٨٧
ميناء الغوص ٩٠
غلطة بصواب ٩٢
جولة في جزيرة موريا ٩٣
باو باو ٩٣
منطقة القهوة العربية ٩٦
الغابات الطبيعية ٩٧
الركن الجميل ٩٧

الديانة القديمة ٩٨
شاطئ أبو نوهو ٩٩
العودة إلى بابيتي ١٠٠
مشكلة القبلة ١٠٢
مغادرة تاهيتي ١٠٤
من بابيتي إلى سيدني ١٠٥
تباشير الفجر المشكل ١٠٧
الوصول إلى سيدني ١٠٩
الخميس الذي صار جمعة ١١٠
استراحة مجانية ١١٣
من سيدني إلى بانكوك ١١٤
فوق الصحراء الغبراء ١١٥
صحراء الصحراء ١١٧
دهناء أستراليا ١١٨
البراق الأسترالية ١١٩
تباشير الاخضرار ١٢١